الفصل الثاني

البعد الديني للحوار

تمهيد

بادرت العديد من المؤسّسات السودانية إلى حركة حوار الأديان ، وكثير من المبرّرات تفرض ذلك . ليس الحرب الدائرة في الجنوب وحدها ، وإنما عوامل أخرى داخل المجتمع وخارجه حتّمته؛ حربا أهلية وضغوطاً دولية ، ورغبة في مواكبة شروط الدورة الحضارية الجديدة . كما أنّ بعض الهيئات والجهات حرصت بشكل أو بآخر على احتكار هذا التقليد الامتياز ، مع استبعاد أو تقليص دور الشركاء الدينيين ، الذين يحملون قيما دينية وأخلاقية مخالفة . هذا إلى جانب مناقضة الإسلام لفلسفة الغرب القائمة على إرث تقليدي للدّين . ممّا يحتّم بذل الجهد المشترك لتقليص التناقض وردم قدر المستطاع هوّة الاختلاف .

وفي المقابل خلّف الاستعمار الغربي بمستعمراته القديمة وخاصة العالم الثالث تركه ثقيلة على مستوى النّخب العلمانية ، وتعمّق الجهل وانتشار العادات الضارّة ، كذلك تعميقه لمفاهيم خاطئة عبر ميراث مناهجه التعليمية الصفوية . وما خلّفه على مستوى الشعور العام من جراح وآلام ، مثّلت عقد نفسية وحاجزا ، يصعب معه إقناع المتضرّر بفرضيّة أن هذا العدو التاريخي من الجائز أن يصبح في وقت ما حليفاً جديدا أو طرفاً محاوراً . في تصوّرنا أنّ عامّة النّاس لا يقدرون على استيعاب هذه الحركة «التجديدية» على مستوى العلاقات والأفكار ، دون تغيير في بناهم الفكرية وتجديد فهمهم لطبيعة الأشياء .

كلّ هذه المبرّرات كانت كافية لدخول تجربة الحوار ، بحثا عن المشترك أو دفاعا عن الذات . ويوجد من ناور كسبا للوقت في إطار السعي لإعادة بلورة أفكاره لاقتراح مبادرات أكثر فاعلية ، ضمن حوار أوسع وأشمل . إلاّ أنّ ذلك لا يمنع في كلّ الحالات من العمل على توفر أقدار أكبر من الاحترام المتبادل ،

والنظر إلى الخصوصيات باعتبارها ثوابت قيمية لا يمكن المساس بها . إلا أن تلك الحيثيات لا اعتبار لها إن لم تتوفّر جملة من الشروط الموضوعية ، منها:

- قوة الدولة: من حيث مؤسّساتها وسياساتها ، ومدى قدرتها على توجيه المجتمع ، وحماية القانون والنظر إلى المستقبل بكلّ وضوح .

- إيمان الدولة بأن الحوار الحضاري والتأثير المتبادل وتحقيق الذات ، لا يحصل إلا بتحديد هوية الخطاب ومنطلقاته ، وأنّ ذلك لا يكون إلاّ على أساس ديني .

- مساندة النّاس للمشروع الوطني ، كبديل حواري ناضج وهادف . يدافعون عنه كقيمة تستجيب لحاجاتهم وتوافق قناعاتهم .

- عدالة المشاركة بين مكوّنات المجتمع: بتوفير أقدار معتبرة من الحرية الفردية والتعبير عن الخصوصية العرقية والمذهبية والدينية ، والسماح بفرص حقيقية للمشاركة في رسم الخيارات وتحديد السياسات . حتى يسير نحو تحقيقها عن قناعة ورضا تامَّين ، لأن الدولة القائمة على القهر لا تضمن الولاء الشعبي ، أو انتصار المجتمع لخياراتها عند تداعي الأعداء ، وتواتر المؤامرات الخارجية ، أو استفحال التخريب الداخلي .

- برهنة الدّولة عن قوّتها ونفي عجزها ، من خلال استقلالها الاقتصادي وتحقيق اكتفائها الذاتي ، ونجاح خططها التنموية ، وقدرتها على التعاطي مع الأزمات .

ولئن توفّرت تلك الشروط مجتمعة ، فإنّ حظوظ المشاركة في الحوار ونجاحه تصبح متاحة ، فيسهم كلّ طرف بفكره ويُحترم رأيه ويكسب خيراً كثيراً . أمّا خارج هذه الحقائق فمن الصّعب جداً أن يقدر أي طرف على التفكير في مجرد البقاء فضلا عن المنافسة . فحركة الحوار تستهدف في جملة تفاصيلها تَلمّس مواطن ضعف وقوّة الطّرف المقابل ، لإجادة إدارة حوار فعّال . كل هذه

الأسباب وغيرها ولدت الحاجة للحوار الهادف على المستوى الدولي والإقليمي والقُطري .

يعتبر حوار الأديان هو جزء من استراتيجية متكاملة ، هدفها إعادة صياغة علاقات حضارية تبتعد في قواعدها ومعاييرها عن الحسابات الدولية الضيّقة . فهي حركة لتفعيل الدين في الحياة لانقاذ البشرية من الحيف والظلم وازدواجية المعايير وتكديس الخير بيد طبقة معيّنة أو قوة غالبة ، ولا تلتفت لما يعانيه الفقراء من الجهل والتخلف والمرض ، الذي ترزح تحت وطأته إفريقيا بأكملها وكذلك دول آسيا الفقيرة . وفي تصوّرنا لا يوجد فرق بين طبيعة التغوّل المادي وهيمنة قانون الغالب ، وبين التصفية والإبادة العرقية والدّينية التي تمارسها المؤسسات الدولية بأساليب أكثر تهذيبا ، يستوي في ذلك القوي الغازي ومجلس الأمن والأمم المتحدة . ولعلّ أبرز حرب بشعة شهدها القرن العشرين ما حدث من كوارث إنسانية في البوسنة والهرسك . كلّ ذلك وقع تحت أنظار «العالم المتحضّر» ، الذي يريد تعليم أبناء العالم الثالث مبادئ الحرية والديمقراطية والعدالة وحقوق الإنسان .

ما نتصوّره في مشروع حوار الأديان هو تحريض لكل فئة على إعادة فهم تعاليم دينها ، وتجديد التديّن في صفوف أتباعها ، والإطلاع العميق على دين الآخر ، لمعرفته عن قرب ، والتنسيق المشترك من أجل تعميق روح التفاهم والاحترام المتبادل من خلال المؤسسات الرسمية والشعبية ، فمجرّد الحوار عبر ملتقى أو مؤتمرات لا يمكن أن ينهي جميع الخلافات ويتجاوز جميع التناقضات . نعم يساعد على توثيق الروابط عبر التعارف ، وبذر الطمأنينة بين جميع الأطراف المعنية بالحوار ، لأن الانغلاق والانكفاء نتيجته تعميق التوتّر وتزايد المخاوف وبذل الجهد لأخذ الاحتياط من الآخر ، يزيد من التباعد . وهو نفس الخطأ الذي وقع فيه أقباط مصر ، بانطوائهم التقليدي وحذرهم الشديد وغير المبرّر ، بل واختار الكثير من علمائهم من ذوي الثقافة والخبرة والمهارة الهجرة

من وطنهم .

إن القيمة الإيجابية التي أكدت عليها الشريعة الإسلامية هي مبدأ ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون:٦] ، من أجل التعايش الديني والاحترام المتبادل بين أفراد الطوائف المختلفة ، مع اعتبار أن ثراء الرّوح البشرية والفكر الإنساني هو في الإطلاع المتبادل على فكر الآخر ومعرفة خصائصه ، قصد حصول التفاهم وانتفاء الرمزية وزوال الشك . فالشفافية هي أفضل وسيلة لتحقيق المصالحة والعمل الجماعي النّافع ، بعيداً عن الحسابات الخاصة والفهم الخاطئ والحذر المبالغ فيه . مع أهمية التأكيد على لزوم التخلص من أي ارتباط يعيق عملية التحاور الهادف ، وعدم التعلّق بتوصيات وسياسيات قوى خارجية لها مصلحة في عرقلة الحوار وإفساده . وما وراء ذلك فهو مجال مفتوح لطرق جميع أبواب الحوار على مستويات:

- العقدية والسلوك .
- الفكر والثقافة .
- السياسة والاجتماع والاقتصاد .
- حرية الدعوة والتنصير .
- المشاركة في بناء الدولة وصياغة النمط الاجتماعي المشترك .
- التكتّل في جبهة موحدة ضد التطرّف العلماني الإلغائي ، وقوى الاستعمار المعاصر ، وآليته المتمثّلة في منظومة العولمة .

كلّ هذه المبادئ تصلح لأن تكون محاور مهمّة للتحاور ، وجديرة بالالتفاف حولها . للخروج من السلبية والتكرار والتوقّف عند الصياغات الأدبية على الورق . بل المطلوب الفعل الإيجابي والتحرّك العملي . لذلك فقد وجدنا في المشروع السوداني أرضية أولية صالحة لأن ننطلق منها لدراسة حالة إقليمية

نموذجية بمقاييس التجارب الجديدة وبما حقّقته من نتائج أولية . فقد قمنا بمسح مكتبي ووثائقي استقصائي وإحصائي دقيق ، وقفنا فيه على ما يفيد في عملنا هذا:

- ورقات ووثائق مختلف حوارات الأديان التي عقدت بالسودان .
- الوثائق الحكومية الرسمية والمواقف الحزبية .
- القوانين والمراسيم والقرارات والاتفاقيات السودانية .
- ثمّ كل ما يساعد على التحليل والنقد والتقويم والاقتراح .

*****

المبحث الأول

الأهداف الإسلامية من الحوار

تمهيد:

تُستمد أهداف الحوار الديني بالنسبة للمسلم من مبادئ الدّين الإسلامي وتوجيهاته . فهو محاولة لنقل تعريف دقيق ومفصّل عن الإسلام في عقائده وشرائعه وشعائره ومبشّراته وتصوّراته ، ليرسم صورة واضحة عن هذا الدين ، يضعها بين أيدي محاوريه من مختلف الأديان والمشارب الفكرية والفلسفية . وبما أنّ من جملة خصائص الدين الإسلامي العالمية والكونية ، فإنّه لا يضيق ذرعا بالآخرين ولا يخشى التنوّع ، كما لا يتخلّف عن المشاركة والتفاعل والتخطيط المشترك مع بقية الأطراف . لذلك فإنّ المحاور المسلم يهدف من وراء حركة الحوار الدّيني إلى تحقيق جملة أهداف عملية تقريبا بين مختلف مكوّنات المجتمع الواحد ، وانفتاحا على الأمم والشعوب بثرائها وتنوّعها .

فشرط التعايش السلمي الذي عرّفه النّص القرآني بمصطلح التعارف ، يحدّد طريقته في وظيفة التدافع ، وتقدّر قيمته في صفة الخيرية والنّفع بمفهومه الواسع والشّامل . والشريعة الإسلامية بما هي الدّين الخاتم جاءت مستوعبة لكلّ النّاس باختلاف مِلَلِهم ونِحَلِهم لا تُفرّق بينهم بنسب الدّين واللّون والعِرق ، فهم سواسية لا يتظالمون ولا يتعدّى بعضهم على بعض بدعوى تمايز الدّين . مكوّنين أنموذجا فريدا من التعايش والتنافع ، لم يُعرف مثاله إلاّ في ظلّ تجربة الدّولة الإسلامية ، التي نظّمت علاقات النّاس ، بإقامة العدل ومنع الجور ، فلا تطغى أغلبية لتسحق أقلّية ، كما لم تنظّم المواطنة على أساس الدين أو الانتماء العرقي والقبلي .

وكما شهد المجتمع الإسلامي توسّعا وتجدّدا ، بدخول الأمم والشعوب

والقبائل تحت سلطان المسلمين ، ممّا ولّد روحا جديدا ونفسا حضاريا أكثر تنوّعا ، فإنّ الفقه الإسلامي شهد كذلك تمدّدا وثراء ، بكثرة مسائلة وتفرّع قضاياه ، لما لا وقد تبدّل حال المسلمين من مجتمع تقليدي في جميع مستوياته ، إلى مجتمع مركّب تتشعّب فيه المكوّنات والقضايا والمطالب . فلم يعرف في نشأته تعدّد المذاهب والفرق والجماعات والأحزاب ، كما كان حال فترته الوسيطة في آخر أيّام خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه وما تلتها . فلئن كان العراق موطن الشدّ والجذب بين الحركات الفكرية والسياسية والثورية ، فقد كانت الشام ومصر والأندلس أرضا خصبة لحركة اللّقاء الديني المتحاور . وفي ظلّ تلك الحقائق الجديدة ، وضمانا للعدل ومنعا للجور ، بدأت معالم تأسّس ثانية للفقه الإسلامي ، الذي واجهته معطيات اجتماعية ودينية جديدة ، وكان من شرط حيويته وفعاليته أن يُوجِد الإجابة القاطعة لما يطرح من أسئلة تتعلّق بوضع الكتابيين الجدد . وقد كانت الغلبة لسلطان دولته ، التي امتدّت على رقعة جغرافية بسطت ظلّها من الأندلس شرقا إلى الصين وما جاورها من نواحي آسيا شرقا .

أمّا حديثا فقد تبدّل الأمر وتغيّرت المعطيات ، فتراجع شهود الأمّة الحضاري ، وتقلّص سلطانها وتخلّى عن ثوابته التشريعية ومرجعيته الأصولية . فرزحت الأمّة تحت وطأة الغلبة مشدودة بآصار الجهل وعوامل التخلّف ، مبهورة بصناعة غيرها ، ممّن زاحمها حضاريا وقلّص نفوذها جغرافيا ، وطمع في ما تبقى من مقدّراتها من بشر وثروة ، فانسحب عنها قانون المغلوب مولع باتّباع الغالب ، فاتّبعت سَنَنَهُ في التشريع والتوجيه ، وحمل النّاس على تشرّب ما يعتقده من أفكار وما يتخلّق به من سلوك . فكانت النتيجة ما اصطلح على تسميته الإلحاق الحضاري بكلّ ما تعنيه الكلمة وما يدلّ عليه المصطلح .

ومن أجل مقاومة ذلك المشروع الخطير الذي في جوهره فصل الأمّة عن هويّتها وقطعها عن تاريخها ، ظهرت في البلاد العربية والإسلامية حركات

فكرية عديدة ، تدِين في أغلبها لمبادئ تقابل بين عالم غربي مستعمر وعالم عربي وقع عليه فعل المستعمر . وممّا زاد الطين بِلَّة ضعف الخلافة العثمانية وانتهاء أمرها إلى مُلك تركي عنصري قطع مع إرث الخلافة ، فأصبح مثل غيره من الدّول المستعمرة التي تريد بسط نفوذها وسيادة هيمنتها ، كما أنّ القوى الغربية لم تقصّر في تقليم أظافر عدوّها التّاريخي بكلّ الوسائل الممكنة والمتاحة . وكان من تلك الأدوات الخطيرة تشجيع وتنشيط وتأسيس الحركات العربية الانفصالية ، فظهرت حركة القومية العربية بكلّ فصائلها ، للاستعاضة بها عن الهويّة الإسلامية ، كما أسّست جامعة الدّول العربية للاستعاضة بها عن الجامعة الإسلامية التي وضع لبنتها روّاد النهضة الإسلامية الأولى ، جمال الدّين الأفغاني (١٨٣٧-١٨٩٧) ومحمّد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) ومحمد رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥) .

وفي خضم تلك الصراعات الفكرية ذات البعد العروبي الإقليمي تارة ، وذات البعد اليساري حينا آخر ، ظهرت توجّهات فكرية عرقية جديدة ، في البلاد العربية ، مثل حركة الأكراد ، الذين طرحوا قضية تقرير المصير وحقّهم في دولة تحكمهم على غرار الطرح العروبي ، ثمّ حركة الأقباط الذين يعتبرون العرب قوّة مستعمرة غاصبة ، وكذلك تكتّل الشركس بالأردن وأحزاب القبائل والبربر بليبيا والجزائر والمغرب . وما كان لتلك النعرات والعصبيات أن تقوم ، لولا غياب سلطان الإسلام الذي صهر تلك الأمم والشعوب والقبائل في دورة حضارية واحدة ، مع احترام خصوصياتها وثقافاتها ولغاتها وتقاليدها . كما أنّه لم يضق ذرعا بأهل الأديان الأخرى من يهود ونصارى وصابئة ويزيدية وزردشت ومجوس ، وغيرهم كثير .

وبغياب تلك الضوابط الاجتماعية وانهيار قانون التعايش ، وتقلّص الولاء الوطني لصالح قوى الاستعمار ، ظهرت مفاهيم جديدة وولاءات مشوّهة ، لا تخدم القضية الوطنية والنهوض بواقع الأمّة . وممّا زاد الوضعية استفحالا أن

تصدّ لرسم مستقبلها قوى الاستعمار ومن سار في فلكها . لذلك لم تختلف وضعية الدولة القطرية الحديثة عن حالها قبل حركة الاستقلال الوطني . فقد ورثت تركة ثقيلة من تفكّك البنى الاجتماعية وتشتّت الولاءات وتصادم التوجّهات الفكرية والطموحات السياسية ، إلى جانب الحركات الانفصالية ، مثل أكراد المربّع السوري العراقي التركي الإيراني ، وكذلك معضلة جنوب السودان ، التي طفحت على السطح الوطني منذ ما عُرِف باقلاب توريت سنة ١٩٥٠ .

وبرغم تعاقب الحكومات السودانية ، وتنوّع مشاريعها الإصلاحية ، وكثرة مبادراتها لرأب الصدع الوطني والخروج من محنة الصراع «جنوب شمال» ، إلاّ أنّها لم تفلح بشكل نهائي في تسوية الخلاف ، باستثناء بعض الجهود الترقيعية التي سرعان ما تذهب سدى قبل افتراق مقترحيها . وبثراء التجربة الحوارية السودانية وتنوّعها ، بدأت تصل تدريجيا إلى مقترحات حلول إيجابية . وتعتبر حوارات الأديان التي عقدت بالسودان أهمّ مشروع وطني للدول الحديثة ، فقد تبلورت عبرها أفكارا قيّمة معتبرة ، أسهمت إلى حدّ كبير في إعادة بناء الثقة التي فقدت منذ ما يزيد على نصف قرن من الزمن . لذلك فإنّنا سنقف على أهمّ تلك المقترحات والتوصيات من خلال الأهداف الدينية والسياسية للحوار الديني السوداني ، الذي سار شوطا كبيرا في القطع مع خلفيات السياسة ورعوناتها ، نحو وفاق وطني حقيقي .

الحوار حول العقيدة والسلوك:

يتميّز الإسلام بطابع المسالمة والانفتاح ، مع احترام الآخرين في معتقداتهم وما يدينون به من مبادئ وانسجاما مع صفة الانتشار السلمي ، فإنّ المسلم يهدف من خلال الحوار تعريف الناس جميعهم بدينه والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى سلما . وهو في كلّ ذلك يعمل على تخليص البشرية من قيود تقليد الآباء في موروثهم الذي اعتقدوه وتواضعوا عليه ، والسموّ بها إلى درجات عليا من

المعرفة والفكر . لذلك فإنّ المسلم مطلوب منه بصريح نصوص دينه أنّ يحاور ويناظر ويدعو بالتي هي أحسن . كما أنّه موجّه إلى حسن توظيف فرص اللّقاء مع الآخرين ، وعدم إضاعتها عبثا وهدرا للوقت والجهد .

فمناسبات الحوار هي أرضية خصبة لضرب الرأي بالرّأي في هدوء وتعقّل بين مختلف الفرقاء الدينيين ، والتناظر والتحاور الهادف بما يقرّب وجهات النظر ويقلّص الاختلاف ، طلبا للمعاش المشترك . والمسلم في كلّ تلك التفاصيل يقرّر مبادئ التوحيد ، ويوجّه إلى عبادة الله وحده . فخطابه الصادق ووضوح مقاصده إلى جانب بلاغة معناه وسهولة فهمه ، قادر على النفاذ إلى وجدان الناس والتأثير فيهم وإحداث تغير جوهري على مستوى العقيدة والسلوك .

والتاريخ الإسلامي شاهد على هذه النقلات الحضارية السلمية على مستوى الأفراد والجماعات ، ممّن تأثّروا وانحازوا إلى الدين الإسلامي ، لما لمسوه في أهله من قيم نبيلة ومبادئ سامية وأخلاق رفيعة . ومن اختاروا البقاء على دينهم تأثروا بتعاليمه وهديه ، فانعكس على خلقهم وسلوكهم مع الناس وعامة مجتمعهم .

تاريخيا نجد أنّ الدولة الإسلامية الأولى بالمدينة ، ضبطت شكل التعامل مع غير المسلمين من حيث تعريفهم وكسبهم خصائص الأمّة ، ورسم علاقتهم بالمجتمع والدولة ، فحافظوا على كيانهم المستقل من غير محاصرة أو تضييق أو عزل . الشرط الوحيد هو الاستجابة لتلك الالتزامات القانونية التي حوتها وثيقة المدينة ، وتواضع عليها موقّعوها . فهو التقاء على أساس المواطنة بقصد التعاون والتدافع والمناصحة وحصول المنفعة المشتركة .

ضمنت صحيفة المدينة حرية المعتقد والتعبّد ، وحرية الكسب والتملّك ، وحرية مخالطة الناس ، وحرية تبادل الأفكار عبر الحوار الهادف بعيداً عن الاستفزاز والإغراء والإكراه والابتزاز . كما أنّ رسول الله ﷺ كان قد استقبل

وفد الحبشة وهو بمكة ، ثم استقبل وفد نجران وهو بالمدينة واستضافهم في مسجده وبسط لهم فراشه ، وكان يوصي أصحابه خيراً بأهل الكتاب وخاصة النصارى لقربهم من المسلمين . وتبع صحابته رضوان الله عليهم نفس الطريق من بعده ﷺ في معاملة غير المسلمين في البلاد المفتوحة . تشهد على ذلك الوثائق السياسية والعهود والاتفاقات التي أبرمها الفاتحون مع أهل البلد المفتوح . شاهدة على سماحة الإسلام ورفقه بالآخرين ، وهي دلالة على أنّه لم يأت لإكراه الناس وإنما لتخليصهم من الظلم والإكراه الذي خيّم طويلاً .

كثيرا ما يطرح بعض الكتاب أو الباحثين بالغرب موضوع الجهاد في الإسلام ، ويطلقون عليها الحرب المقدّسة . وقبل التفصيل في هذه المسألة نريد أن نعرّف الجهاد ونعطي فكرة عن الحرب المقدّسة التي تتكرّر بكثرة في الإعلام الغربي ، عند الحديث عن الإسلام والإرهاب ، والإسلاميين والإرهابيين والجهاد . وكان يكفيهم حقيقةً معرفة تعريفات هذه المصطلحات ومضامينها ، لو تحلوا بأبسط شروط الموضوعية وقواعد البحث العلمي . إلاّ أنّهم جانبوا الصواب عند اختيارهم الأرضية السياسية كمنطلق للتعامل مع الفكر الإسلامي ، من حيث المصطلحات والتراث الفكري والفقهي الذي له مرجعيته الأصولية العقدية .

المشكلة الحقيقية تكمن في عدم جدية الباحثين المسلمين في تقصي الحقائق ، وبذل الجهد في تبيانها للنّاس عامّة والباحثين الغربيين خاصّة . ولقد راجعنا بعضا من موسوعاتنا اللّغوية ، بحثا عن دلالة مصطلح «الجهاد» بداية من جذع الكلمة «ج هـ د» . ممّا أوصلنا إلى نتيجة مهمّة وبدهية في نفس الوقت ، لاعتبار أنّ بسيط الاطّلاع معجميا على دلالة الكلمات العربية ، يعرف المعاني الكثيرة للفظ «الجهاد» . وهي معاني غير عدوانية أو استفزازية أو عدائية يشتمّ منها رائحة الكراهية . وهو ما توضّحة النماذج المعجمية التالية:

الجهاد: المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل . والجهاد: المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب أو اللّسان أو ما أطاق من شيء . الجهد:

الجَهدُ والجُهدُ: الطاقة ، نقول: اجْهَد جَهْدَكَ ، وقيل: الجَهْدُ المشقة والجُهْدُ الطاقة [١] . وجَهِدَ يَجهَد جَهدا ، واجتهد ، كلاهما جَدَّ [٢] .

الجيم والهاء والدال أصلُهُ المشقّة ، ثم يحمل عليه ما يقاربه . يقال جَهَدْتُ نفسي وأَجْهَدت والجُهْد الطَّاقة . قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ [التوبة: ٧٩] . ويقال إنّ المجهود اللبن الذي أُخرجَ زُبْده ، ولا يكاد ذلك يكون إلاّ بمشقة ونَصَب [٣] . وجاهد (جاهَد يُجاهِد مجاهدة وجهادًا) العدوّ قاتله . وجاهد صَرَف جُهدَهُ وبذل وُسعَهُ وتَعَنَّى . وجاهد في سبيل الله بَذَل وُسْعَهُ . . .واجتهد في الأمر بذل وسعه وطاقته في طلبه ليبلغ مجهودَه ويصل إلى نهايته [٤] .

وحقيقة الجهاد كما قال الرّاغب: استفراغ الوسع والجهد فيما لا يرتضى . وهو ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر والشيطان والنفس . وتدخل الثلاثة في قوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ [الحج:٧٨] [٥] . لذلك لا نجد وجها من وجوه دلالة اللّغة يحمل معنى العداء والتحضير . وإنّما قصارى ما نفهمه هو بذل الجهد والوسع في إنجاز عمل له أهميته . ومن جملة الدلالات التي يحملها هذا المعنى هو الجهاد ، الذي يعني القتال الدفاعي وليس التوسعي العدواني . كما أنّه لمصلحة الناس وخيرهم ، لا لأذيتهم وفنائهم . فالإسلام

---

(١) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب. دار الفكر، بيروت. م٣، ص ١٣٣، (جهد).

(٢) أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المُرسي المعروف بابن سيده: . تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١ / ٢٠٠٠، م٤، ص ١٥٣ (ج هـ د).

(٣) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللّغة. تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتب الإعلام الإسلامي، طهران، ١٩٨٤، م ١، ص ٤٨٦، (جهد).

(٤) حسن سعيد الكرمي: الهادي إلى لغة العرب، قاموس عربي عربي. دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، طبعة ١ / ١٩٩١، ص٣٧٨.

(٥) السيد محمد مرتضى الزبيدي: شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس. المطبعة الخيرية، القاهرة، طبعة ١ / ١٨٨٦، ج ٣، ص ٣٢٩.

يطالب بالحرية وينشدها لكلّ متطلّع لها ، ويمنع من يصدّهم عن ذلك ، ويدفعهم ، وهو بذلك تأديب لمن وقف في وجه الدعوة الإسلامية ومنع وصولها إلى الناس بغيا في الأرض بغير حق .

أمّا عن مصطلح الحرب المقدّسة ، فهو مصطلح دخيل عن الثقافة الإسلامية ، مترجم عن الثقافة الغربية ذات الأبعاد الدينية النصرانية ، المتأثّرة بتاريخ الحروب الصليبية ، التي عُقِدت ألويتها باسم الكنيسة ، لتحرير القدس ليس من المسلمين فحسب بل بتطهيرها من النصارى العرب الوطنيين ، الذين ذاقوا الويلات من النصرانية الغربية ، مثلهم مثل المسلمين . لذلك لا يمكن المقارنة والمقاربة بين مصطلح الجهاد ودلالاته ، ومصطلح الحرب المقدّسة وخلفيته الأصولية . إذ أنّ الجهاد بمعنى الحرب يكون لدفع ظلم وردّ حق ، ولا قداسة للحرب في ذاتها كما يعرّفها المفهوم النصراني .

فالإشكالية الحقيقية هي في تأثّر النخبة العربية بالكتابات الغربية ، قراءة وترجمة وترويجا . ممّا أنتج طبقة نخبوية أطّرتها ثقافة غربية موجّهة ، في قطيعة مع تاريخها الحضاري ، وجاهلة بمضامين الدين الإسلامي ، وغريبة عن هوية المجتمع . وقد وافق ذلك الموجّهات العامّة للثقافة الغربية الوافدة على البلاد الإسلامية .

ونتيجة للمخالطة والتواصل والتعارف بين الأمم والشعوب والأديان ، وما يسعون إليه من النفع ، ظهرت صُوَرا من التعاون والتفاهم بين أصحاب الأديان بعيداً عن الإكاره والتضييق . مثل تجربة التنوّع في مصر والسودان ولبنان وتركيا ، القائمة على المواطنة . فوجدت شراكة حقيقية في دوائر القرار ومؤسسات الدولة العليا ، كما عُهدت لهم مسؤوليات رفيعة على مستوى الإدارة والاستشارة والسفارة ، وهو دليل آخر على أن الاستعمال والتوظيف لا يقومان على مبدأ الدين أو العرق أو اللّون أو الانتماء الجهوي ، بل إنّ معاييره القوة والأمانة .

إلا أن العديد من المؤثّرات الدّاخلية والخارجية كان لها الأثر الكبير في تغير المعطيات . نتيجة لتبدّل الظروف ودخول معادلات جديدة ، إلى جانب ولاء ضعاف النفوس من النصارى للدوائر الأجنبية . فتغيّرت أساليب وخلفيات التعامل ، فأنتج أنماطا جديدة للتعامل وأمزجة متباغضة متدابرة ، في صُلب المجتمع الواحد . وعامّة فإن تلك الوضعية برغم خطورتها فإنّها لم تعرف ردّة فعل عرضية من طرف المسلمين ، الذين تميّزوا غالبا بالوفاء بذمّة الله ورسوله .

إنّ مناقشتنا لهذا المطلب سوف لا تقتصر على طرح أفق التعامل مع النصارى ، وإنّما تستهدف معرفة خلفيتهم الدينية انطلاقا من كتبهم المقدسة وقرارات مجامعهم وتوصيات مؤتمراتهم التبشيرية المعاصرة . ولكن قبل ذلك لا بدّ من الإجابة على سؤال في غاية الأهمية وهو أيّ كتاب مقدّس نعني؟ ، خاصّة أمام تعدّد الكتب بتكاثر فرق النصارى التي لا يسلّم بعضها للآخر بالحقيقة[١] .

فالباحث يقف على خلاصات خطيرة في العقائد والتشريعات والقصص ، والموقف من الآخر . إذ المطلوب أوّلا في تصوّرنا مراجعة دقيقة لمضامين «الكتاب المقدّس» وطرح الكثير من محتوياته ، وتخليصه من شوائب العنصرية والتحريض على القتل والسبي والحرق والتدمير والإفناء باسم الرب[٢] . ممّا كان له الأثر البالغ في تزييف وعي النصارى الذين خاضوا الحروب الصليبية بناء على تلك التعاليم ، ووفقها نُصِبت محاكم التفيتش في الأندلس . وفي ضوئها التفوا حول توصيات مؤتمر جاكرتا الإقليمي لدول جنوب شرق آسيا لسنة ١٩٧٥ ، ومؤتمر ولاية كولرادو الأمريكية لسنة ١٩٧٨ القاضي بوضع خطّة لغزو العالم الإسلامي عبر المؤسسات والهيئات التبشيرية المدعومة بمراكز القرار

---

(١) انظر بحثنا:» ابن تيمية ورحمت الله الهندي ومنهجهما في دراسة العقائد النصرانية «.

(٢) انظر – تثنية: الاصحاح ٧ من ١ إلى ٧، ومن ١٤ إلى ١٦، الاصحاح ١١ من ٢٤ إلى ٢٥، الاصحاح ١٣ من ١٥ إلى ١٧، الاصحاح ٣٢ من ٤١ إلى ٤٢، الاصحاح ٣٣ المقطع ٢٩. سفر يوشع: الاصحاح ٦ من ٢٠ إلى ٢١.

والسلطة في الغرب .

هذا إلى جانب تعديهم المقصود على مشاعر المسلمين في أقدس ما يمتلكون ، حيث قامت شركة «هورتي Hurti» الألمانية بإنتاج وتسويق ملابس داخلية نسائية ورجالية كتبوا عليها آيات من القرآن الكريم[١] ، كما صرّح وزير الإعلام الصربي «فيليبور أوسكوبتش» بأنهم حملة لواء الحروب الصليبية الجديدة لإنقاذ أوروبا من الإسلام[٢] . هذا إلى جانب الحملات الإعلامية المغرضة ، التي تصوّر المسلمين وحوشا ضارية وكواسر شرسة ، وقوما همّج ، مثل تصريحات البابا بندكتس ١٦ ، في سنة ٢٠٠٦ ، والتي سُبِقت بحملة رسوم ساخرة من النبي محمّد ﷺ ، إلى جانب تصريحات مؤذية من عدّة رجال دين نصارى على اختلاف مذاهبهم .

خيار الكنيسة أم زلات رجال الدين:

من المفترض أن يدعم التقارب التاريخي بين الإسلام والنصرانية مسيرة الوفاق والتعايش المشترك بين أتباعهما ، بغضّ النّظر عن الاختلافات العقدية ومآلاتها السلوكية . إلاّ أنّه من المفيد أن نذكّر في هذا الصدد بحقيقة أساسية مفادها أنّ النصرانية الشرقية ليست هي النصرانية الغربية . ومردّ ذلك إلى أنّ المعايشة التاريخية والتواصل اليومي والمؤاكلة والمؤانسة ، وما تخلّل ذلك من شعور بالأخوّة في الوطن والانتماء إلى تاريخ مشترك وتقاطع المصالح ، كان لها جميعها الأثر البالغ في تلك العلاقات الحميمية ، بل وبها يفسّر التاريخ المشترك برغم اختلاف الدين ، حتى لا يكاد المرء أن يفرّق بين الانتماء الديني للتجّار في متاجرهم ، أو للمواطنين في مساكنهم لولا معرفته المسبقة بهم أو إن دلّ دليل على ذلك . بل كان نصارى المشرق من جملة ضحايا الحملات الصليبية القادمة

---

(١) مجلة المنهل: العدد ٤٧١ – رمضان شوال ١٤٠٩ – أبريل – مايو ١٩٨٩.

(٢) جريدة المسلمون – الجمعة ٢٣ صفر ١٤١٣هـ / أغسطس ١٩٩٢. السنة الثامنة (٢٩٤) – ص١. تحت عنوان «المطلوب عمل عسكري إسلامي لإنقاذ البوسنة".

من الغرب ، التي لم تستهدف المسلمين فحسب ، بل نال أذاها النصارى برغم توحيد العقيدة الدينية بينهم .

وبحسب تصوّرنا فإنّ تلك النزعة العدائية من نصارى الغرب تجاه الإسلام والمسلمين ، إنّما منبعها الأساسي الجهل بطبيعة العلاقات التاريخية التي طبعت علاقة المسلمين والنصارى ، إلى جانب الغرور المركّب الذي ميّز الكنيسة الغربية وشعورها بعقدة الاستعلاء ، وفي المقابل احتقارها المخالفين والتقليل من شأن معتقداتهم وثقافتهم وحضارتهم . ممّا كان له الأثر السلبي على سلامة رؤيتها لطبيعة العلاقة التي يجب أن تكون بينها وبين المسلمين . لذلك لا ننفي إمكانية تأثّر الكثير من أتباعها بتلك الأفكار السلبية التي ألقت بظلالها وخيّمت على مجرى العلاقات البشرية . وهو ما تكشف عنه المواقف الخطيرة التالية ، والتي صدرت عن رموز دينية نصرانية ، لا يجوز في حقّها الخوض في مثل هذه المهاترات ، والوقوع في التصرّفات الرعناء .

وأمام تصاعد موجة الغضب العارمة من المسلمين نتيجة لتلك التصريحات الخطيرة ، وتطويقا للأزمة سارعت عدّة جهات في الفاتيكان للإدلاء بتصريحات حاولت فيها البحث عن أعذار للبابا ، إلاّ أنّها لم تخرج في مجملها عن لوم المسلمين على عدم فهم كلام البابا واستيعاب ما أراد قوله . ومن تلك التصريحات ما جاء على لسان أمين سر دولة حاضرة الفاتيكان الكردينال تارشيزيو بيرتوني ، حول ردود فعل الجهات الإسلامية حيال خطاب البابا[1] ، وملخصه:

أمام ردود فعل جهات إسلامية حيال بعض المقتطفات من خطاب البابا بندكتس السادس عشر في جامعة رجنسبورج والإيضاحات التي قدمها مدير دار الصحافة التابعة للكرسي الرسولي ، أود أن أضيف ما يلي:

---

(١) صدرت التصريحات يوم السبت ١٦ أيلول ٢٠٠٦.

ـ إن موقف البابا حيال الإسلام يتمثل بدون أي التباس في الوثيقة المجمعية «Nostra Aetate» التي تناولت علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية تحت عنوان «في زماننا» وأُقرت إثر مجمع الفاتيكان الثاني في ٢٨ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٦٥: "وتنظر الكنيسة بعين الاعتبار أيضا إلى المسلمين الذين يعبدون الإله الواحد القيوم الرحيم الضابط الكل خالق السماء والأرض المكلم البشر. ويجتهدون في أن يخضعوا بكليتهم حتى لأوامر الله الخفية كما يخضع له إبراهيم الذي يُسند إليه بطيبة خاطر الإيمان الإسلامي. ولأنهم يجلون يسوع كنبي وإن لم يعترفوا به كإله ويكرمون مريم أمه العذراء كما أنهم يدعونها أحيانا بتقوى. وعلاوة على ذلك إنهم ينتظرون يوم الدين عندما يثيب الله كل البشر القائمين من الموت. ويعتبرون أيضا الحياة الأخلاقية ويؤدون العبادة لله لا سيما بالصلاة والزكاة والصوم».

ولا التباس في موقف البابا من أجل الحوار الديني والثقافي المشترك. خلال لقائه مع ممثلي بعض الجاليات الإسلامية في كولونيا في ٢٠ أغسطس ٢٠٠٥ قال إن الحوار بين المسيحيين والمسلمين يجب ألا يتحول إلى خيار موسمي؛ وأضاف أن خبرات الماضي يجب أن تساعدنا على تحاشي ارتكاب الأخطاء نفسها. نريد البحث عن دروب المصالحة والعيش ضمن احترام هوية الآخر.

ـ في ما يتعلق برأي الإمبراطور البيزنطي مانويل باليولوغوس الثاني، الذي أشار إليه البابا في خطابه في ريغينسبورغ، فإن الأب الأقدس لم يشأ ولا يريد بشكل مطلق تبنيه لكنه استخدمه فقط، في إطار أكاديمي ووفقا لقراءة يقظة وكاملة للنص، كي يقوم ببعض التأملات حول موضوع العلاقة بين الدين والعنف بشكل عام والوصول في نهاية المطاف إلى رفض جذري وواضح للتعليل الديني للعنف من أي جهة أتى. تجدر الإشارة في هذا السياق إلى ما قاله مؤخرا البابا بندكتس السادس عشر في خطابه لمناسبة الذكرى العشرين للقاء الصلاة ما بين الأديان الذي شاءه السعيد الذكر البابا يوحنا بولس الثاني في

أسيزي في أكتوبر ١٩٨٦:» . . .لا يمكن نسب مظاهر العنف إلى الدين إنما إلى الحدود الثقافية التي يعيش وينمو فيها مع مرور الزمن . . . في الواقع إن جميع التقاليد الدينية الكبرى تحتوي على شهادات عن الصلة الحميمة بين العلاقة مع الله وأخلاقية المحبة .

ـ وبالتالي إن الأب الأقدس يأسف أشد الأسف أن تكون بعض مقتطفات خطابه قد بدت مهينة لمشاعر المؤمنين المسلمين وفُسرت بطريقة مخالفة لمقاصده . ومن جهة أخرى ، فإن البابا ، أمام حماسة المشاعر الدينية للمسلمين ، حذر الثقافة الغربية المعلمنة كي تتحاشى احتقار الله والاستخفاف به والذي يعتبر الاستهزاء بالمقدسات حقا في الحرية .

ـ إن البابا إذ يؤكد احترامه وتقديره للمؤمنين المسلمين ، يأمل بأن يتفهموا كلماته بمعناها الصحيح كي تتقوى ، بعد تخطي هذه الفترة غير السهلة ، الشهادة للإله الواحد القيوم الرحيم الضابط الكل خالق السماء والأرض المكلم البشر ، والتعاون المشترك من أجل صيانة وتعزيز العدالة الاجتماعية والأخلاق والسلام والحرية» .

وللتعبير بصراحة عن موقف علماء الإسلام من تلك التصريحات المهينة التي صدرت عن بابا الفاتيكان ، وجّه عدد من علماء الإسلام رسالة مطوّلة للبابا بندكتس السادس عشر ، عرضوا فيها آرائه المغرضة ، تقويما ونقدا وبيانا لوجه الحقيقة . وبرغم طول تلك الرسالة فإنّنا رأينا من الأهمية بمكان إطلاع القارئ عليها ، بغاية التوثيق من جهة ، وبغاية إعطاء فكرة عن موقف الإسلام من تلك القضايا التي هي محلّ خلاف ونقاش بين مختلف تكوينات المجتمع السوداني .

«نحسب أنه من الملائم ضمن سياق روح النقاش المفتوح وفيما يتصل بمحاضرتكم التي ألقيتموها في جامعة رجنسبورج في ألمانيا بتاريخ ١٢ سبتمبر ٢٠٠٦ ، أن نتناول استخدامكم لمناظرة جرت بين الإمبراطور مانويل الثاني

باليولوجوس ورجل «فارسي مثقف» ، كنقطة بداية لخطابكم حول العلاقة بين العقل والإيمان ، ففي الوقت الذي نطري فيه جهودكم التي تبذلونها في معارضة هيمنة الفلسفة الوضعية والمادية في حياة الإنسان ، لابد لنا أن ننوه إلى بعض الأخطاء التي وردت في إطار الطريقة التي أشرتم فيها إلى الإسلام على أنه الجهة المقابلة للاستعمال المناسب للعقل ، بالإضافة إلى بعض الأخطاء التي وردت في التأكيدات التي سقتموها لدعم حجتكم .

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ :

لقد ذكرتم بأنه «وفقاً لما يقرره أهل الدراية» فإن الآية القرآنية التي مطلعها ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة:٢٥٦] ، كانت في بداية أمر النبي عندما «كان ضعيفاً وتحت التهديد» ، وهذا غير صحيح . والصحيح الثابت أن هذه الآية تعود إلى الوقت الذي كان فيه الترتيل القرآني متوافقاً ومنسجماً مع واقع السيطرة السياسية والعسكرية للأمة الإسلامية الفتية . لم تكن آية ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ أمراً للمسلمين بالبقاء ثابتين راسخين أمام رغبة الذين ظلموهم وعذبوهم لإرغامهم على التخلي عن دينهم وإيمانهم ، ولكنها جاءت تذكيراً للمسلمين أنفسهم عندما تحققت لهم أسباب القوة والمنعة أنه ليس باستطاعتهم أن يرغموا قلوب غيرهم ويحملوها على الإيمان .

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ تخاطب أولئك الذين هم في حالة القوة وليس الضعف . ولقد بينت التفاسير الأولى للقرآن الكريم « مثل تفسير الطبري » بأن المسلمين في المدينة أرادوا إرغام أبنائهم ليتحولوا من اليهودية أو النصرانية إلى الإسلام ، فكانت هذه الآية جواباً دقيقاً لهم بألاَّ يحاولوا أن يكرهوا أبناءهم حتى يدخلوا في الإسلام . هذا بالإضافة إلى أن المسلمين لديهم أيضاً توجيهات قرآنية هادية في هذا الصدد مثل: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾

[الكهف:٢٩] ، وأيضاً: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ [الكافرون] .

تنزيه الإله :

لقد قلتم أيضاً إن: «الإله ، بالنسبة إلي التعاليم الإسلامية ، منزه تنزيهاً مطلقاً بتبسيط يمكن أن يكون مؤداه مضللاً . فلقد بين القرآن أنه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى:١١] ، ولكنه بين أيضاً: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور:٣٥] ، وقال: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق:١٦] ، وقال: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد:٣] ، وقال : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد:٤] ، وقال: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١١٥] ، وكذلك دعنا نتذكر حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي يبين فيه أن الله يقول في العبد الصالح: « **فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها** » [(١)] .

وفي مجال التعليم المتعلق بالروحانيات وعلم الكلام والفلسفة ، يعتبر المفكر ابن حزم (المتوفى ١٠٦٩م) الذي استشهدتم به شخصية هامشية جداً - وإن كان ذو شهرة - وهو ينتمي إلى المدرسة الفقهية الظاهرية التي لا يتبعها أي مسلم في العالم اليوم . وإذا أراد إنسان البحث عن عبارات ونصوص أصيلة بشأن عقيدة التنزيه ، فإن هناك شخصيات أهم بكثير من ابن حزم من حيث تأثيرهم ومرجعيتهم في مجال العقيدة الإسلامية مثل الإمام الغزالي (المتوفى ١١١١م) .

لقد اقتبستم مناقشة مفادها أنه بسبب أن الإمبراطور «كان متأثراً بشدة

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، حديث رقم ٦٥٨١.

بالفلسفة اليونانية» فإن فكرة أن «الله لا يرضى عن سفك الدماء» «أمر بدهي» بالنسبة له ، وأنها بالنسبة للتعاليم الإسلامية بشأن تنزيه الإله عرضت كنموذج مقابل . فقولكم إن إرادة الله بالنسبة للمسلمين «غير مقيدة بأي مقولة من مقولاتنا» يعتبر تبسيطاً أيضاً يمكن أن يفضي إلى سوء فهم . إن لله في دين الإسلام أسماء كثيرة منها: الرحيم والعدل والبصير والسميع والعليم والودود واللطيف . وأن اعتقاد المسلمين التام بوحدانية الله وأنه ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص:٤] ، لم يؤد إلى إنكارهم نسبة هذه الصفات إلى الله وإلى خلقه ، (مع الوضع جانباً الآن فكرة «المقولات» وهي عبارة تحتاج إلى إيضاح أكثر في هذا السياق) .

وحيث أن هذا أمر يتعلق بإرادة الإله ، فاستنتاجكم أن المسلمين يؤمنون بإله مزاجي يمكن أن يأمرنا بالشر أو يمكن ألا يفعل ، من شأنه أن يغفل قول الله في القرآن: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٩٠] ، تماماً كما يغفل قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام:١٢] انظر أيضا آية ٥٤، وبأنه قال: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف:١٥٦] . وإن كلمة رحمة يمكن أيضاً أن تترجم إلى الحب واللطف والشفقة . ومن كلمة الرحمة جاءت العبارة المقدسة التي يستعملها المسلمون يومياً ، «بسم الله الرحمن الرحيم» . فهل هو أمر غير بدهي أن سفك دم بريء يتعارض مع الرحمة والشفقة؟ .

استعمال العقل:

إن التعاليم الإسلامية غنية بتنقيباتها وبحوثها في طبيعة الذكاء الإنساني وعلاقته بكنه الإله وإرادته ، ويتضمن ذلك تساؤلات بشأن ما هو بدهي وما هو غير بدهي . لكن الفصل بين العقل من جهة والإيمان من جهة أخرى لا يوجد بنفس هذا الشكل تماما في الفكر الإسلامي بل أدرك المسلمون قوة الذكاء

الإنساني وحدوده بطريقتهم الخاصة ، مقرين بتسلسل هرمي للمعرفة يقع العقل في جزء مهم جداً منه ، وهناك تطرفان عمل المنهج الفكري الإسلامي الأصيل علي تحاشيهما عموما: الأول جعل العقل التحليلي هو الحكم النهائي على الحقيقة ، والآخر هو إنكار قوة الإدراك الإنساني في تناول التساؤلات المطلقة ، والأهم من ذلك بكثير أن البحوث الفكرية للمسلمين خلال العصور في أنماطها الأكثر نضجا ورواجا قد حافظت على انسجام وتوافق بين حقائق التنزيل القرآني ومطالب الذكاء الإنساني دون التضحية بأحدهما من أجل الآخر ، يقول الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣] . هذا وإن العقل آية من بين آيات كثيرة بداخلنا ، دعانا الله للتأمل فيها والتأمل بها ، كوسيلة لمعرفة الحقيقة .

ما الحرب المقدسة؟:

نود الإشارة إلى أن «الحرب المقدسة» مصطلح ليس له وجود في المفردات الإسلامية ، بينما يوجد الجهاد . ولابد من التأكيد هنا أنه يعني المجاهدة والمناضلة ، وخصوصا الجهاد في سبيل الله . إن هذا الجهاد يمكن أن يأخذ أشكالا كثيرة بما في ذلك استخدام القوة ، وبالرغم من أن الجهاد يمكن أن يكون مقدسا إذا كان في سبيل غاية قدسية ، إلا أنه ليس بالضرورة أن يكون «حربا» . وعلاوة على ذلك تجدر الملاحظة إلى أن مانويل الثاني باليولوجوس يقول بأن «العنف» يتعارض مع طبيعة الإله ، ولكن المسيح نفسه استعمل العنف ضد صرافي الأموال في المعبد وقال: «لاتظنوا أنني أتيت لأجلب السلام في الأرض ، لم آت لجلب السلام ولكن جئت بالسيف »[1] . وعندما أغرق الله فرعون ، هل كان يتصرف على عكس طبيعته؟ . ربما قصد الإمبراطور القول بأن القسوة والوحشية والعدوان ضد طبيعة الإله ، وهذا ما يؤكد عليه فقه وقانون الجهاد التقليدي الأصيل في الإسلام تماما .

---

(١) إنجيل متى: ٣٤-٣٦.

لقد قلتم بأن الإمبراطور علم بالطبع التعليمات التي طورت فيما بعد ودونت في القرآن فيما يتعلق بالحرب المقدسة ، ولكن كما أشرنا أعلاه بخصوص ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة:٢٥٦] ، فإن التعليمات آنفة الذكر لم تكن فيما بعد على الإطلاق ، وعلاوة على ذلك ، تُبين أقوال الإمبراطور حول اعتناق الدين بالعنف بأنه لم يكن يدري ما هي هذه التعليمات وكيف كانت دائما .

ويمكن تلخيص القواعد الإسلامية الأصيلة المعتمدة الخاصة بالحرب في المبادئ التالية:

ـ غير المقاتلين ليسوا أهدافا جائزة أو شرعية ، ولقد تم التأكيد على هذا مرارا وبشكل واضح من قبل النبي وأصحابه ومن قبل أهل العلم منذ ذلك الحين .

ـ الاعتقاد الديني وحده لا يجعل أي إنسان هدفا للنيل منه ، فالمجتمع الإسلامي الأول كان أفراده يقاتلون وثنيين قاموا بطردهم من ديارهم وظلمهم وتعذيبهم وسفك دمائهم ، وبعد ذلك كانت الفتوحات الإسلامية ذات طبيعة سياسية .

ـ المسلمون يمكنهم أن يعيشوا بسلام مع جيرانهم وينبغي عليهم ذلك ، ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال:٦١] ، ومع ذلك فهذا لا يمنع حقهم الشرعي في الدفاع عن أنفسهم والحفاظ على سيادتهم واستقلالهم .

والمسلمون ملتزمون تماما بالتقيد بهذه القواعد كالتزامهم بالبعد عن السرقة والزنا ، وإذا نظم الدين تشريعا للحرب وحدد الظروف التي تجعله ضروريا وعادلا فذلك لا يجعل هذا الدين دينا عدوانيا ، كما لو أن الدين وضع نظاما خاصا بالعلاقة الجنسية فإن ذلك لا يجعل الدين دينا شهوانيا ، وإذا استخف البعض بالتعاليم والمبادئ الراسخة بقوة وعلى مدى طويل من أجل أحلام يوطوبية حيث الغاية تبرر الوسيلة ، فبذلك يكون فعلهم من قبيل الهوى والرغبة

الخاصة وليس من جراء مرسوم أو قانون صادر عن الله أو عن نبيه أو عن أهل العلم ، يقول الله في القرآن العظيم ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة:٨] . وفي هذا السياق لابد من بيان أن جريمة القتل التي وقعت بتاريخ ١٧/٩/٢٠٠٦ وراح ضحيتها راهبة كاثوليكية بريئة ـ وأي أعمال عنف فردية مخزية وشائنة مماثلة أخرى ـ كردة فعل لمحاضرتكم في جامعة رجنسبورج ، هي لا تمت بصلة إلى الإسلام أبداً ، ونحن ننكر مثل هذه الأفعال تماماً .

اعتناق الدين بالإكراه:

إن الفكرة التي مفادها أن المسلمين مأمورون بنشر دينهم «بالسيف» وأن الإسلام في الواقع انتشر بشكل هائل «بالسيف» لا يعضدها التدقيق وإمعان النظر . وحقيقة الأمر أن الإسلام من حيث كونه كيانا سياسيا فقد انتشر بشكل جزئي نتيجة للفتوحات ، لكن الجزء الأكبر من توسعه قد تحقق نتيجة النشاط الدعوي . فالتعاليم الإسلامية لم تنص على أن سكان البلاد المفتوحة يتعين إرغامهم أو إكراههم حتى يتحولوا إلى الإسلام . وفي الواقع ، فإن كثيرا من المناطق الأولى التي فتحها المسلمون بقيت أغلب أجزائها غير مسلمة لقرون من الزمان ، ولو أن المسلمين رغبوا بإكراه الناس جميعهم حتى يعتنقوا دينهم ، لما بقي هناك كنيسة واحدة أو معبد يهودي في أي مكان من العالم الإسلامي .

وأن الأمر الإلهي الذي تتضمنه آية ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة:٢٥٦] تعني الآن ما عنته في ذلك الوقت ، وأنه لم يكن مجرد كون الشخص غير مسلم مبررا شرعيا للحرب قط لا في الشريعة ولا في العقيدة الإسلامية ، وبالنسبة لقوانين الحرب ، يبدي التاريخ أن بعض المسلمين قد خرقوا المبادئ الإسلامية فيما يتعلق بإكراه غيرهم على اعتناق الدين وبمعاملة أقوام الأديان الأخرى ، ولكن التاريخ يبدي أيضا بأن هذه التصرفات بلا أدنى ريب هي استثناء يثبت القاعدة

. وإننا نوافق بالتأكيد على أن إكراه الآخرين على الاعتقاد ـ إن كان ذلك يتأتى حقيقة على أي حال ـ هو أمر غير مرضي عند الله ، وأن الله لا يرضى عن سفك الدماء البريئة ، ونحن في حقيقة الأمر نؤمن ويؤمن المسلمون دائماً بقول الله: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة:٣٢] .

شيء جديد؟:

لقد ذكرتم تأكيد الإمبراطور بأن «أي شيء جديد» جاء به النبي كان شريراً ولا إنسانياً ، مثل أمره المزعوم بنشر الدين الذي يدعو إليه بالسيف ، هذا وإن الأمر الذي فشل الإمبراطور في إدراكه ومعرفته ـ علاوة على أن واقعا مثل هذا الأمر كما ذكر أعلاه ليس له وجود في الإسلام مطلقاً ـ وهو أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يدع أنه جاء بشيء جديد من الأساس ، يقول الله تعالى في القرآن العظيم: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فصلت:٤٣] ، ويقول أيضاً: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأحقاف:٩] . وهكذا فإن الإيمان بالله الواحد ليس من خصائص أي دين دون غيره ، ووفقاً للعقيدة الإسلامية فإن جميع الأنبياء الحقيقيين «عليهم السلام» كانوا يدعون أقواماً مختلفين في أزمنة مختلفة إلى الحقيقة ذاتها ، فمن الممكن أن تكون الشرائع مختلفة ، ولكن الحقيقة لا تتغير .

أهل الدراية:

لقد أشرتم مرة من دون تحديد إلى «أهل الدراية» بشأن الإسلام ، وفعلياً قمتم أيضاً بنقل كلام عالمين كاثوليكيين بالاسم ، الأستاذ عادل تيودور خوري والأستاذ المساعد روجر أرنالدز ، ويكفي القول هنا أنه بينما يعتبر كثير من المسلمين أن هناك منصفين من غير المسلمين والكاثوليك الذين من الممكن أن

يعتبروا حقيقة «أهل دراية» في دين الإسلام ، إلا أن المسلمين لم يصادقوا حسب علمنا على «أهل الدراية» الذين أشرتم إليهم ولا يقرون لهم بأنهم يمثلون المسلمين أو وجهات نظرهم . لقد كررتم بتاريخ ٢٥/٩/٢٠٠٦ ، ما جاء في بيانكم الهام في مدينة كولونيا في ألمانيا بتاريخ ٢٠/٨/ ٢٠٠٥ ، أن الحوار بين الأديان والثقافات فيما بين المسيحيين والمسلمين لا يمكن تقليصه إلى مستوى الشيء «الزائد الاختياري» ، فهو في الواقع ضرورة أساسية حيوية يعتمد عليها مستقبلنا بمقدار كبير ، وفي الوقت الذي نوافقكم فيه تماماً ، إلا أنه يبدو لنا بأن جزءاً كبيراً من هدف الحوار بين الأديان يكمن في أن نجاهد من أجل الإصغاء إلى الأصوات الفعلية لأولئك الذين نتحاور معهم ، وليس فقط لأولئك الذين ينتمون إلى جماعتنا .

النصرانية والإسلام:

إن النصرانية والإسلام يعتبران الأكبر وثاني أكبر دينين في العالم وفي التاريخ ، حيث يشكل النصارى والمسلمون حسب التقارير ثلث العالم وخمس العالم على التوالي ، وهم يشكلون معاً أكثر من ٥٥٪ من عدد سكان العالم ، مما يجعل حسن العلاقة بين مجتمعات هذين الدينين أهم عامل من العوامل المساهمة في إحلال سلام مؤثر حول العالم ، وباعتباركم قائداً لأكثر من مليار كاثوليكي ومثالاً أخلاقياً لكثيرين غيرهم في أرجاء المعمورة ، فربما تكونون أنتم الصوت الأوحد والأهم في مواصلة المضي قدماً في هذه العلاقة باتجاه التفاهم المتبادل ، ونحن نشارككم الرغبة في إقامة حوار صريح ومخلص ، وندرك أهميته في عالم يشتد الترابط فيه بشكل متزايد ، وعند إقامة حوار مخلص صريح فإننا نأمل في الاستمرار ببناء علاقات وئام وصداقة مؤسسة على الاحترام والإنصاف المتبادلين وعلى ما يجمعنا جوهرياً من الإرث المشترك المرتبط بالنبي إبراهيم عليه السلام وخصوصاً «الوصيتين العظميين» في إنجيل مرقص ، ١٢: ٢٩ ـ ٣١ ، «وبشكل مختلف في إنجيل متى ، ٢٢: ٣٧ ـ ٤٠» «الرب إلهنا رب واحد ، وتحب

الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك» ، هذه هي الوصية الأولى ، وثانية مثلها هي «تحب قريبك كنفسك» ليس وصية أخرى أعظم من هاتين .

وعلى ذلك ، فإن المسلمين يقدرون الكلمات الآتية الصادرة من مجلس الفاتيكان الثاني: « تُكِن الكنيسة أيضاً احتراماً عالياً للمسلمين ، فهم يعبدون الله الواحد الحي القيوم الرحيم القادر ، خالق السماوات والأرض ، والذي كلم البشر أيضاً» . وهم يجتهدون في الخضوع الكامل لأوامر الله دون تحفظ ، تماماً مثل خضوع إبراهيم لقضاء الله ، وهو الذي يربط المسلمين دينهم بدينه بشدة ، وبالرغم من أنهم لا يقرون بأن عيسى المسيح إله ، إلا أنهم يوقرونه باعتباره نبياً ، وهم يُجِلون أمه العذراء أيضاً ويذكرونها حتى في أوقات تضرعهم الخاشع ، ويترقبون أيضاً يوم القيامة والثواب من الله بعد بعث الأموات ، ولهذا السبب هم يعظمون الحياة المستقيمة ويعبدون الله خاصة من خلال الصلوات والصدقات والصوم (نوسترا إيتاته ، ٢٣/ ١٠/ ١٩٦٥) .

كذلك وبنفس القدر ، يثمن المسلمون كلمات البابا الراحل يوحنا بولس الثاني والذين يحترمونه ويقدرونه كثيراً: "نحن المسيحيين نعترف بكل سرور بالقيم الدينية التي نشترك فيها مع الإسلام ، وأود اليوم أن أكرر ما قلته لشباب مسلمين في الدار البيضاء قبل بضع سنين: نحن نؤمن بالإله نفسه ، الإله الواحد الحي ، الإله الذي خلق العالم وأخرج مخلوقاته في أكمل صورة» (انسجنمنتي ، ٢/ VIII، ١٩٨٥) ، صفحة ٤٩٧ ، اقتبست من كلمة خلال عظة عامة بتاريخ ٥/ ٥/ ١٩٩٩ .

كما يقدر المسلمون أيضاً تعبيركم الشخصي غير المسبوق عن الأسف وإيضاحكم وتأكيدكم «في ١٧/ ٩/ ٢٠٠٦» بأن الاقتباس الذي استعملتموه لا يعكس رأيكم الشخصي ، بالإضافة إلى تأكيد أمين سر حاضرة الفاتيكان الكاردينال تارشيزيو بيرتوني في «١٦/ ٩/ ٢٠٠٦» على ما جاء في الوثيقة

الصادرة عن مجلس الفاتيكان نوسترا إتياته ، وأخيراً؛ فإن المسلمين يقدرون تعبيركم عن «الاحترام الكامل والعميق لجميع المسلمين» أمام مجموعة من سفراء دول إسلامية بتاريخ ٢٥/ ٩/ ٢٠٠٦ .

نأمل بأننا سوف نتجنب جميعاً أخطاء الماضي ونتحاشاها ونعيش سوياً في المستقبل بسلام وتسامح واحترام متبادلين . والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله» .

إن كانت تلك هي وضعية النخبة الغربية «المتديّنة» ، والتي من المفترض في خطابها أن يتّصف بالاعتدال والرصانة ، والابتعاد عن الإثارة والتذكير بمرحلة قاتمة من تاريخ الكنيسة الغربية ، فلا غرابة إذا في أن تقود الإدارة الأمريكية ذات التوجّه الدّيني الإنجيلي الأصولي حملاتها العسكرية تحت شعار «الحروب الصليبية» . فأحيت بذلك سُنّة التوافق القديم بين الإدارة العسكرية والمؤسّسات التنصيرية ، من أجل إبادة الأعداء ، حسب المعادلة الاستراتيجية الجديدة التي نادى بها الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن ، في إطار الاستعداد لحملة عسكرية ضد الدولة العراقية . ومفاد تلك المعادلة أنّ الذي ليس معنا هو بالضرورة عدوّنا . وفي كلّ ذلك يتجلّى التوجّه الدّيني الذي يشرّع لتلك الممارسات الظّالمة [1] والاعتداء على مشاعر المسلمين بانتهاك مقدّساتهم .

ولا يستبعد أن تكون تلك الجهات وراء إغراء بعض أبناء المسلمين وتشجيعهم على النيل من مقدّسات الإسلام تحت مسمّيات شتّى ، مقابل امتيازات تافهة صورية . ولا أتصوّر إلاّ كتابات «سلمان رشدي» صاحب مؤلف «آيات شيطانية ، وتصريحات تسليمة نصري ، إلاّ جزء من ذلك التوجّه ، الذي يتقاطع بل يتّفق وما أقدمت عليه بعض الدول الأوروبية من تضييق على المسلمين وتشديد الخناق عليهم ، كمنع المؤسسات الحكومية الفرنسية عبر

(١) سفر يوشع: الاصحاح ٨ من ٢٤ إلى ٢٨.

منشور رسمي(*) الطالبات المحجبات من دخول المؤسسات التعليمية والجلوس إلى مقاعد الدراسة ، فضلاً عن أن تسمح للمسلمين الفرنسيين بالتحاكم إلى قضاء شرعي في مسائل الأحوال الشخصية ذات الصبغة الدينية . كما أصدرت السلطات الألمانية قرارا بمنع تشييد صومعة مسجد بتعلة إفسادها شكل العمارة بالمدينة وإمكانية تسبّبها في كارثة بالمجال الجوي ، فضلا عن أن تُعطي تصاريح أخرى لبناء مساجد جديدة . ممّا اضطرّ المسلمين إلى إقامة صلواتهم في أقبية تحت المباني القديمة ، في ظروف مهينة تحطّ من الكرامة الإنسانية .

فإن كانت وضعية المسلمين في الغرب «المتقدّم» على هذه الحالة ، وتلك هي طبيعة الخلفية الفكرية التي تحرّك الطبقة المتديّنة ، على افتراض أنّها الفئة المتنوّرة الموثوق بها ، فهي لا تختلف نوعيا عن حال الطبقة الحاكمة ، الواقعة تحت سلطان السياسة ورعوناتها ، فكيف عساه يكون واقع تفكير المثقّف النصراني السوداني؟ ، الذي يعلن دائما شعوره بالغبن والميز العنصري ويتبرّم بالواقع . في تقديرنا الشخصي يوجد تماثل تام بين النمطين الفكريين . وذلك بفعل تأثير الثقافة الكنسية التي يشرف عليها مبشرون أجانب مهمّتهم الأساسية هي صياغة فكر نصارى السودان وفق التعاليم الإنجيلية ، التي أوضحها مؤتمر كولرادو سابق الذِكر ، و الذي يستهدف ديار الإسلام . وتحت تأثير هذه السياسة والتوجيهات الكنسية:

ـ استغل مجلس الكنائس السوداني نزاعا قبليا بين الدينكا وقبائل جنوب كردفان ، فصوره على غير حقيقته ، وضمّنه جدول أعماله وهو يستعد للمشاركة في اجتماع مجلس عموم كنائس إفريقيا ، المنعقد في لومي عاصمة التوغو بتاريخ ١٢ ديسمبر ١٩٨٧ . وتبعاً لذلك أوردت مذكرة المجلس أن

(*) عرف بمنشور فرنسوا بيرو «François – BAYROU» وزير تعليم فرنسي سلبق، ثم عيّن الرئيس الفرنسي «جاك شيراك» لجنة برئاسة «برنار ستازي Bernard STASI» لإعداد تقرير حول ما سمّي » بالرّموز الدينية » والمقصود به حقيقة هو حجاب المرأة المسلمة.

السودان يمارس نظام العبودية في تحد تام لقواعد العدالة وحقوق الإنسان .

ـ دعا أسقف الأُبيّض مكرم ماكس في يوليو ١٩٨٨ خلال جولته الأمريكية إلى معاقبة السودان اقتصادياً ، والضغط على العالم الإسلامي ليكف عن دعم السودان عسكرياً، من أجل إجبار السودان على التراجع عن تطبيق الشريعة الإسلامية ، وقد أخذ هذا التوجّه بعداً عالمياً بطرح الموضوع في مؤتمر «لامبث» العالمي في بريطانيا في يوليو ١٩٨٨ ، حيث صدرت ثلاث توصيات بشأن السودان من أصل التوصيات السبع الصادرة في حق العالم الإسلامي[١] .

وبرغم المواثيق الدولية المتعلّقة بحقوق الإنسان وتحريم الميز العنصري مازال إلى يومنا هذا توجد كنيسة أو كنيستان تحاولان باستمامة الدفاع عن سياسات التمييز العرقي واللوني على قواعد مسيحية ، منطلقين من القصة الواردة في العهد القديم ، والتي مفادها أن حاماً نظر لعورة أبيه نوح السكّير وضحك . وحينما علم نوح بذلك دعا على أبنه حام:» فلما استيقظ نوح من خمره علم به ابنه الصغير فقال عبد العبيد يكون لإخوته . وقال مبارك الرب إله سام ، وليكن كنعان عبد الهم "[٢] ، «وهكذا ينص العهد القديم على أن الأفارقة جبلوا بلعنة نوح ليكونوا عبيد الأوروبيين والسّاميين "[٣] . ومن خلال ذلك كلّه نرى:

- أنّ الكنيسة قد خرجت عن طبيعة رسالتها الروحية واستدرجت إلى العمل السياسي الملغوم .

- غياب الرّوح الوطنية والغيرة على السودان بالترويج للادعاءات والتآمر على أمن الدولة .

- تأليب المجتمع الدولي على السودان .

---

(١) حسن مكي: المشروع التنصيري في السودان. ص١٢٨.

(٢) التكوين: الإصحاح ٩/ ٢٥ – ٢٦.

(٣) حسن مكي: المشروع التنصيري في السودان. ص ١٣٧.

- افتضاح أمر الكنيسة بانكشاف دعمها لحركة التمرّد ودعوة الانفصال .

- عدم اهتمام الكنيسة برسالتها الدينية ، وتآمرها على أنصارها بتمرير عقائد عنصرية لاستعباد الأفارقة ، وعدم مطالبتها المجامع النصرانية وخاصة البابا لاعتبارها سلطة دينية عند الكاثوليك بإعادة النظر في مثل هذه النصوص التي تعتبر انتهاكا صارخاً للحرية الإنسانية ومبادئ العدالة . فكما استجاب بابا الفاتيكان السابق يوحنا الثاني من قبل للمطالب اليهودية بتبرئتهم من دم المسيح عليه السلام ، فمن اليسير أن يقوم بابا الفاتيكان الحالي بندكت السادس بعملية مراجعة لتلك النصوص الدينية ، ويزيل تلك المهانة التي علقت لقرون طويلة بالسود ، وفي تقديرنا سوف يكتب له التاريخ الديني تلك العملية إن أقدم عليها .

ـ عدم مبادلة المسلمين نفس الاحترام والتقدير ، بل استفزازهم بشرب الخمر علنا ، أو الخروج إلى الشوارع في يوم رمضان للأكل والشرب ، هذا إلى جانب السفور والتحلل الأخلاقي . وهو ما لاحظناه بإطّراد في دراستنا الميدانية التي شملت أحياء شعبية خاصّة بمدينة أم درمان – منطقة الشنقيطي ، الحارة ١٤ على مقربة من كشك الأمن الشّامل رقم ٥٣١ .

في تصوّرنا لا بدّ من التنبيه إلى أنّ طبيعة الواقع يجب أن لا تغيب في ظل البروتوكول الرسمي والمجاملات في جمعيات الحوار أو المنتديات المفتوحة ، والتي يسعى كل واحد عبرها لكسب ود الآخر . فهذا الواقع غير مؤسس على قيم التعامل الحضاري وضبط الاحترام المتبادل ، الذي يشكل أرضية للحوار حول مبدأ العقيدة والسلوك في إطار الوطن الواحد .

إن مناقشة هذه المبادئ بالطريقة التي وردت ضمن ورقات حوار الأديان في السودان أو خلال مداولة الجلسات ، لا يفضي إلى نتيجة عملية يتواضع عليها أفراد المجتمع في حياتهم اليومية . فاحترام العقيدة الخاصة هو حق يكلفه القانون

السوداني ، بل إن التعدي على المؤسسات الدينية النصرانية أو الإسلامية يعد جريمة قدر لها القانون الجنائي السوداني لسنة ١٩٩١ عقوبة خاصة بها . لذلك فلا بدّ وأن تتّجه الجهود نحو موضوعات أكثر دقّة ، فما ضمنه القانون راجع لسلطان الدولة ، وأمّا الحوار والتفاهم والالتفاف حول المبادئ الوطنية وتقوية المجتمع والدولة هو ما يجب التركيز عليه والتنبيه إليه .

أعتقد أنّ مبدأ التحاور حول العقيدة والسلوك لابدّ وأن يقوم على أسس وضوابط واضحة ، يتواضع عليها الجميع خُطّة ثابتة لتجاوز بعض الاشكالات التي تعرقل مواصلة حركة الحوار حول المواضيع الحياتية المشتركة ، ومن تلك الأسس:

- حرية العقيدة وتنظيم الحياة الفردية والجماعية وفقها .

- لا يفهم من مبدأ الحرية التعدي على الآخر وازدرائه ومسّ شعوره الديني .

- تهذيب المواقف الشخصية وتجنّب الأحكام المسبقة وطلب المعلومة من مصادرها الأصلية .

- الابتعاد عن أسلوب الإثارة والاستفزاز في التعامل ، وتجنّب احتقار الآخر بسبب دينه أو أصله أو ثقافته .

- فهم عقيدة وفكر الآخر ، وطرح المسائل الغامضة للحوار والنقاش الهادف .

- الالتزام بقيم المجتمع التي توفّر الاحترام المتبادل ، والقائمة على مبدأ حب الخير للآخرين ، ومعاونة العاجز ومساعدة المحتاج بغض النظر عن فوارق الانتماء .

- إنشاء مؤسّسات للدراسات الدينية المقارنة ، لإعداد بحوث أكاديمية وإصدار نشريات ودوريات تخدم أغراض الحوار والتعايش .

- عقد دورات تأهيلية مستمرة لتأطير المواطنين والإجابة عن التساؤلات ،

وإعادة صياغة تصوّراتهم ورؤيتهم للآخر .

- الاهتمام بالمقرّرات الدراسية خاصّة بمرحلة المتوسط والثانوية ، بإحداث مادة تُعنى بالتربية الوطنية توجّه لجميع الطلبة بقصد شرح وترسيخ هذه القيم .

- الاهتمام المدروس بالنازحين من مناطق الجنوب ، وعدم تركهم هدفاً سهلا للكنيسة تشكل فكرهم حسب مزاجها وأهدافها . فأغلب الأفكار التي اكتسبوها غريبة عنهم مناقضة لما يحملونه من طيبة وعفوية . فلُقّنوا ذلك لخلق الفوارق ، وترسيخ مبدأ القطيعة بينهم وبين الشماليين المسلمين .

التعايش الفكري:

ينسجم هذا المبدأ من أهداف الحوار الإسلامي النصراني وما يليه من مطالب مع العنصر السّابق . لاعتبار أن فكر الإنسانية وحركتها موجّهة بل محكومة بأصولها العقدية الفكرية ، ومتأثّرها بقيمها الأخلاقية السلوكية . ولا يمكن فهم هذه الفكرة المقصود توضيحها إلا بفهم جوهر الفلسفة الدينية النصرانية ، أو ما نسميه نظرية المعرفة الكلية عند النصارى .

يتبدّى الموقف المعاصر الآن مغايراً لما كان عليه في أثينا أيام السفسطائيين . فالفلسفة الشكية الغربية الحديثة لها جذورها المستمدة من دعوة تحرير العقل الغربي من سلطة الكنيسة واللاهوت ، ولعل سبب ازدهارها أنها حققت انتصارات هائلة في مجال العلوم الطبيعية . حيث خاض العقل معركة حاسمة في القرن السادس والسابع عشر من أجل حق الإنسان في أن يفكر خارج نطاق تسلط الكنيسة ومقولات أرسطو . وفي مقابل الهجوم المتوالي من جانب الفلسفة التجريبية الإنجليزية أخذ العقل في الغرب يتأمل ممتزجاً مع تيار الرومانسية ، وبهذا جعل نفسه في مكانة أضعف وأكثر قابلية للنقد والتجريح . وجاء الإخفاق النهائي للفلسفة مع الحرب العالمية الأولى التي ضربت بالمثالية عرض الحائط ، في جامعات أوروبا التي كانت وقتئذ يغلب عليها الفكر

الهيجلي.

وقد وسم الفكر الفلسفي الغربي منذ الحرب العالمية الأولى بالفلسفة الشكية ، وهي في حقيقتها فلسفة تجريبية متطرفة لا تعترف بأي حقيقة إلا تلك التي مصدرها الحس ، وعلى الرغم من أن الحس يستطيع فقط أن يعطي الاحتمالات والتي بدورها لا يمكنها أن تقيم أساساً أو قاعدة للميتافيزيقا والأخلاقيات والجماليات ، ولقد فقدت الفلسفة بذلك أعظم اهتماماتها وانحصرت في المنطق والتركيبات اللغوية . أما عن مشاكل المضمون فإنها انتهت إلى أن تكون مسائل للأشكال الخطابية والاصطلاحية . وبدلا من الاهتمام بالحكمة اقتصرت الفلسفة على «التحليل» . وبدأت مدارس أثينا ، وبمعنى أصح صورة هزلية منها ، تظهر مرة أخرى لتبرز ترعة فكرية لا يحكمها مبدأ عقلي ، تسربت الفلسفة الشكية في الغرب في كل الميادين ، وكان أكثر من عانى من ذلك هو الأخلاق ونظرية القيم حيث أصبحا مفارقاً حول الفلسفة النفعية بجانبيها الفردي والديمقراطي ، كما عانى التاريخ منها أيضاً .

فقد تنصل التاريخ الذي يتحرك بالدعاوى الرومانسية من البحث عن حقيقة الماضي أو الواقع المستمر وأخذ يتقرب من الكتابات الخيالية وكتابات الدعاية . ولم يكن الدين بمنأى عن تلك الفلسفة ، فهو أيضاً انحصر في دائرة الأمور الشخصية التي ليس لها من قيمة إلا الوهم والتقليد . وعكست الفنون بدورها هذا الاضمحلال ووجدت نفسها حرة من كل المقاييس ، وبدأت تتبنى الصور والأفكار للإنسان ، وتبرز انحلالها بدعوى استقلال العمل الفني تارة وحرية الفنان أخرى .

يفرض المجتمع المتعدّد التّركيب نمطا معيّنا من العيش المشترك ، والذي يقوم على أساس الاحترام المتبادل ، لا فقط باحترام الإنسان في ذاته التي كرّمها الله تعالى ، وإنّما بالاحترام الطّوعي المبني على الوعي الحقيقي بضرورة التواصل والتشارك ، وهو ما يملي علينا ضرورة التحلي بأخلاق المجتمع الثري في تكوينه

والمتنوّع في كيانه ، الذي يتبادل قيم الأفكار ويشترك في صياغة المفاهيم وتنضيج التصوّرات ، وهو ما اصطلحنا عليه بقيمة «التعايش المشترك» .

كثيرا ما نلجأ في عرضنا للحالة السودانية إلى المثال المصري[١] واللّبناني والسّوري ، لفهم طبيعة التعايش والتواصل ، بحثا عن المثال الأنموذج وتطويره مع مراعاة الخصوصيات الإقليمية والوطنية ، بقصد التأسيس لتجربة اجتماعية جديدة في ظلّ «تجربة الدولة الحديثة» ، التي تحاول فهم الواقع السوداني وإعداده لأطره في مشروع البدائل الحضارية .

وممّا تجدر ملاحظته في هذا السياق هو تميّز السّاحة السودانية بخصوصيتين مهمّتين هما: عفوية التفاهم الاجتماعي ووجود طبقة من المتنوّرين العارفين . ولكن مع الأسف فإنّ تلك الحالة تكاد تنعدم إذا عرفنا أنّ العفوية الاجتماعية تعرّضت لعملية إجهاض ، فأصبح الجنوبي لا يرى في نفسه إلاّ عبدا للشمالي «السيّد المالك» . ممّا أثّر بشكل مباشر على الطبقة المثقّفة المتنوّرة ، فعكست ذلك أدبا قصصيا وروائيا ، بل ضمّته كلّ الأشكال التعبيرية ، وهو ما نلاحظه في المجموعة القصصية لكل من «جوناثان ميان نقوين» : محاكمة السمكة الكبرى ، فتاة وحبل الانتحار ، تلينقي كان غنيا وأصبح فقيراً ، الجوع في الميزان ، إلى الفردوس ياكجلي كوج ويب ، وكذلك مجموعة «تعبان لولينق» : الكلمة الأخيرة ، اعترافات ، آكلون من جاه الزعماء ، مات زنجي آخر ، و « فرانيس دينق» : بذرة الخلاص ، طائرة الشؤم ، الأفارقة العالميين ، السلام والوحدة في السودان ، وحرب الرؤى . وقد تناول في الكتاب الأخير السودان في مرحلة الاستقطاب: قطب عربي إسلامي ، وقطب إفريقي .

وأمام هذا الانفصال المفزع الذي لا يتّفق وطبيعة الوعي الفكري والنّضج

---

(١) حول حيثيات التحليل السابق انظر: إسماعيل الفاروقي: «الأسس المشتركة» بين الديانتين في المعتقدات ومواطن الالتقاء في ميادين الحياة. الغدير: تصدر عن المجلس الإسلامي الشعبي الأعلى، بيروت، المجلد الثاني، العدد ١٧-١٨ خريف ١٩٩١، ص٨٥.

السياسي ، فإنّه يتحتّم على الطبقة المثقّفة الشمالية أن تأخذ بزمام المبادرة ، بكلّ شجاعة ومسؤولية يدعمها السّند الرّسمي من مؤسّسات الدّولة ورموزها لتصفية تركة ثقيلة ، وذلك بإيلاء الحوار الفكري البناء بين المفكرين والباحثين الأهمية القصوى ، واختيار العلماء الذين يؤمنون بحق بأن الحوار الفكري هو السبيل الوحيد لإقامة علاقات متوازنة وتحقيق العيش المشترك ، وأنّ أساس ذلك القيم الدينية والمعتقدات التي بأجمعها تؤكد على احترام القيم والأخلاق الفاضلة ، وأن تكون هي السّائدة في المجتمع مهما تعدّدت معتقداته وأفكاره ، على أن تبقى مسألة الأخلاق العامة والمثل العليا هي أساس التوجيه والتربية والتعليم ، وأن يكون الجميع مسؤولين عن حماية هذا الكيان البشرى كل حسب موقعه وقدراته وإمكانياته بترسيخ القيم والأخلاق في المجتمع البشري . فالبلاء إذا حلّ عم الجميع لا يستثنى أحداً ، صغيراً كان أو كبيراً ، عالماً أو جاهلاً ، متطرفاً أو معتدلاً ، بل سيكون سيلاً جارفاً يأخذ في طريقه كل شيء[١] .

وأقدّر أنّ ذلك العمل الجبّار يتم على هدي من النقاط التالية:

ـ تهيئة المناخ لإعادة تفعيل حركة فكرية هادفة بتوفير المنتديات المختصة وإدارة إشراف مقتدرة ، لا مجرّد هياكل صورية لاستعاب الناس وامتصاص الغضب ، وصرف الأنظار إلى قضايا هامشية ، وأن غير ذلك يشجّع المثقف النصراني على البحث عن بديل يلبي رغبته ويحقق طموحه عبر منتديات ومراكز ثقافية مشبوهة[٢] .

ـ التّشجيع المعنوي والمادي بتبني الأعمال الفكرية طبعاً ونشراً وتداولاً ، مع

---

(١) انظر محمد غالب عسيلي: العلاقات الإسلامية المسيحية: الغدير: المجلد الثالث. العدد ١٩-٢٠ شتاء ربيع ١٩٩٢ - ص٣٤.

(٢) يرى الطيّب زين العابدين (الأمين العام لمجلس التعايش الديني السوداني) أنّ الأجيال الجديدة لها قابلية على التعايش الثقافي والاجتماعي نتيجة للمخالطة والتقارب، حيث كانت الأجيال السابقة في قطيعة ولا تتكلّم حتى العربية، بينما الجيل الجديد يتحدّث العربية ويتعامل مع المجتمع عامّة. برنامج ملفّات ثقافية، تلفزيون السودان: – يوم ٢٠٠٣/٠٨/٢٦.

عقد موائد مستديرة لمناقشة قضايا الوطن بما يخدم المشروع الفكري النهضوي ، نحو السلام والتعايش والتقريب بين أبناء الوطن الواحد ، وعدم الاكتفاء بالشعارات والوعود ، أو التعويل على برامج ومداخلات المذيعين والمنشطين الإذاعيين غير المختصين . بل لربما تسبّبوا في إشكاليات نتيجة البث المباشر أو البرامج المرتجلة .

تهيئة المجتمع الجديد:

يتبنى المحاور السوداني المسلم فكرة الدولة الجامعة ، التي تتمثّل في الدولة الإسلامية كإطار للتجمع البشري بدلا من القوم أو الشعب أو الجماعة العرقية ، مع عدم إلغاء بقية مكوّنات الدّولة التي لا تدين بالعقيدة الإسلامية . وإنّما يبلغ المجتمع مرحلة كماله ونضجه عندما يؤسّس بناءه في ضوء هدي تعاليم الدين الخالدة ، ولكنه يسع الجميع ، إمّا على أساس الولاء الإيماني ، أو على أساس العهد والولاء الوطني . وهو جوهر دستور المدينة الذي خطّه النبي ﷺ : « أن المسلمين أمّة واحدة ، وأنّ اليهود أمّة من دون المسلمين» .

وتمشّيا مع سنن التوسّع البشري في إطار الدّولة انضمّت أمم من النصارى والمجوس والهنادكة والبوذيين إلى الدّولة الإسلامية وخضعت لسلطانها . فهو أنموذج «أمة العالم» التي تضم في مواطنيتها البشرية كلها ، وعلى الأمم المختلفة التي تكوّن هذا المجتمع العالمي أن تتعايش بسلام ، وعلى كلّ أمّة منها أن تنظم حياة رعاياها وفقاً لشريعتها الخاصة ، فتمتلك مؤسساتها الخاصة وقوانينها الخاصة والسلطة التي تخوّل لها تفعيل الأحكام وإصدارها حاضراً ومستقبلاً ، والدّولة الإسلامية تضمن هذه المعطيات في شريعتها أو قانونها ودستورها الربانيين . وفي «الأمة العالمية» حرية الإقناع أو الاقتناع مكفولة حقيقة ، ففي التنزيل الإلهي: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة:٢٥٦] هو الذي ينبغي أن يحكم علاقة المسلمين وغير المسلمين سواء بسواء[١] .

---

(١) إسماعيل الفاروقي: الدولة القومية والنظام الاجتماعي في المنظور الإسلامي: مجلة الإنسان المعاصر، العدد ١، شتاء ١٩٩٥، ص ٧٨.

وفي الدّولة النوعية يقوم التفاعل الإيجابي على أساس المواطنة وحق الانتماء للمجتمع وتفعيل مؤسساته وتجديد ملامحه ، من أجل صياغة نمط حضاري متميّز في واقع متغيّر ورث الكثير من مخلفات الاستعمار وسياسة الميز العنصري ، ممّا كان له الأثر السيء على مسيرة الأمة وتفتيت جهدها . وفي نظرنا فإنّ صياغة النمط الاجتماعي الإسلامي يستوجب جملة شروط:

ـ إعادة تعريف مصطلح «المجتمع التعدّدي» ، وتحديد مدى قدرة الطرف المسلم على محاورة الآخر والقبول به كمكوّن حقيقي من مكوّنات المجتمع .

ـ صدق شعور المواطنة المتبادل ، وتمكين الآخر من المشاركة الفاعلة وتفجير مواهبه واستعمال طاقاته ، لإرساء المجتمع المدني القائم على المؤسسات والرقابة الذاتية .

ـ فهم النّصوص الدينية وتحريك الفقه الإسلامي لمواكبة واقع الأمة وتحرير العقل من قيوده ليتخلّص من الجمود وتجاوز القوانين الفقهية التقليدية ، التي جاءت نتيجة واقع معين فرض هذه النمطية من الاجتهاد[1] .

ـ إنشاء مراكز للدراسات الاجتماعية لها حرية البحث ووضع الخطط الاستراتيجية ، تستوعب كلّ مؤهّل قادر على المشاركة في التخطيط الاجتماعي ، وذلك بالتعاون والتنسيق مع وزارة التخطيط الاجتماعي . فتكاتف الجهد السياسي الرّسمي والمؤسّسات العلمية يولّد حتما مشاريع مثمرة وترجى نتائجه الإيجابية .

إنّ الخطأ الفادح الذي وقعت فيه الأحزاب السودانية هو قصور سياساتها وبرامجها على فكرة كيفية تسلّم السلطة واقتسام الغنائم بعيدا عن قضايا الوطن وهموم المواطن الحقيقية ، خاصّة قضية الوحدة الوطنية التي أصبحت حصان

---

(١) مصطفي عثمان إسماعيل: (أمين عام مجلس الصداقة الشعبية العالمية بالسودان، ورئيس لجنة حوار الاديان بالسودان)، مقابلة شخصية مع الباحث: الخرطوم:٢ مايو ١٩٩٥.

طروادة للقوى الدولية ومبدأ رمزي تلتف حوله النّخب الجنوبية ، باستثناء بعض المواقف التاريخية للجبهة الإسلامية القومية التي أسهمت بقدر في إعادة الثقة لأبناء الوطن ، ومحاولة تجاوز الإشكال التّاريخي بطرح بعض المبادرات السياسية ، وكذلك بإنشاء مراكز للعمل الاجتماعي الإنساني والاقتصادي التنموي في أطراف البلاد ، محاولة منها لتأسيس مثال تحتذيه باقي الأطراف كخطوة جادة نحو المصالحة .

أمّا عن الوثائق السياسية للجبهة ، فقد ورد في المادة العاشرة من دستورها: «من مبادئ الجبهة صياغة حقوق الكيانات الدينية غير المسلمة بما لها من البر والقسط والسماحة في المعاملات الخاصة ، والمساواة في الحقوق السياسية والمدنية وحرية الاعتقاد ، والعبادة ، واستقلال نظم الأحوال الشخصية والتّعليم الديني» . كما جاء في البيان الختامي لاجتماعات تأسيس الجبهة في يوليو ١٩٨٥: «أن الجبهة لا تضيق بمشاركة غير المسلم في مجالات إعمار الحياة الدنيا ، فيما يمكن أن يتعاون فيه الناس جميعاً »[١] .

وجاء في كلمة حسن عبد الله الترابي أمام المؤتمر التأسيسي «إنّا لنرجو أن يطمئن أهلنا ومواطنونا من أهل الكتاب عامة ، والمسيحيين خاصة ، على أن أصول ديننا التي هي أقرب إلى أصول دينهم ، تسعنا وتسعهم بما لا يتسع دستور على وجه الأرض . فنحن وهم أهل رسالة سماوية تنتسب إلى سلالة من الرسل الصالحين . . .ونحن وهم سواء في الإيمان بمعاني التوحيد والأخلاق ، والعبادة لله والمسؤولية أمام الله . . . ومن شروط الإيمان عند المسلمين أن يراعوا مقوّمات هذه الوشيجة الدينية ويحترموا رسالات السماء ولا يفرّقوا بين رسل الله . . . وتأسيسا على ما تقدم ، كفل الإسلام في أصوله وأحكامه حرية العقيدة والثقافة والحياة الخاصة للمسلمين وغيرهم من أهل الكتاب كل بما تقتضيه عقيدته . . .وكفلت أصول الإسلام وشرائعه للمواطنين من المسلمين

(١) ص ٢٦ .

وغيرهم من أهل الكتاب الحقوق العامة المتساوية ، ما التزموا بالواجبات العامّة في الدّولة والموالاة بعضهم لبعض ، فلهم ما لنا وعليهم ما علينا »[١] .

وفي معرض حديثه عن مشكلة تطبيق الشريعة الإسلامية قال «ولا ذريعة في الاحتجاج بالتباين الديني فالشريعة لجوهرها أحكام تأبى الربا والخمر والعدوان على النفس والعرض والمال وهي لذلك أقرب إلى كلّ الملل من القانون اللاّديني . . .ولكن الشريعة بأشكال تطبيقها تحفظ لغير المسلمين خصوصية قانون الأسرة وتعرف الاستثناء في إنفاذ الحدود ، وقد اقترحت الجبهة وأجازه طائفة من علماء المسلمين تخيير غير المسلمين حيث ما غلبوا في أي إقليم »[٢] . وتأكيدا لنفس المعاني على المستويين الثقافي والحضاري فقد جاء في وثائق الإستراتيجية القومية الشاملة الموجهات التالية:

ـ المجتمع السوداني في أصوله الرّوحية والفكرية مجتمع توحيدي المسعى ، كفل له الإسلام عبر حقب طويلة حوارا سلميا بين كياناته الثقافيه والعرقية ، الأمر الذي شكّل خصائص الشخصية الحضارية السودانية .

ـ إن بلورة المفاهيم الثقافيه لشعب سوداني قادر ومعطاء ، ومنسجم الوجدان ، لا تتمّ بمعزل عن الدّين والعرف والتقاليد الحميدة للشعب وقيمة في الحرية والعدل والمساواة والشورى ، والاستقامة والنجدة ، لتوظيفها في إرساء دعائم وحدة الأمة .

ـ الهوية الثقافيه لشعب السودان نتاج للتنوّع والتمازج بين الأصول الإسلامية والعربية والإفريقية ، فعروبة أهل السودان إنتماء في نسيجه الدّين واللسان والأعراف ، وإفريقية أهل السودان توحّده في إطارها مع جميع سكان القارة على تعدد أوطانهم وعقائدهم وأعراقهم ولغاتهم وثقافاتهم ، وإسلام أهل السودان برحابته وسماحته يمنحهم أعظم فرص التمازج والتوحد ،

---

(١) خطاب الأمين العام في مؤتمر الجبهة الإسلامية، مطبوعات الجبهة، الخرطوم، ص ٩.

(٢) نفس المصدر السابق. ص ١١٧.

ويشدّهم بعالميته إلى عوالم أرحب وقوة أعظم .

ـ يلتزم السودان في ظل نظامه الاتحادي بمفهوم قومية الثقافة ، وبفاعلية هذا المفهوم في العطاء وفي الأخذ دون انكفاء على الإقليمية ، ليصوغ من التنوّع والتمازج ثقافة سودانية واحدة موحّدة[١] .

وقد ورد في إستراتيجية التنمية الاجتماعية: أن الأنموذج الأخلاقي الذي تتجه الإستراتيجية القومية الشاملة إلى تحقيقه هو من جوهر غايتها القومية ، التي تهدف إلى تأسيس نهضة حضارية شاملة ، أصيلة ومعاصرة ومتجدّدة ، يتخلّل مراحل التخطيط والتنفيذ والتقويم فيها إلتزام صادق بأصول الأنموذج الأخلاقي ، يشكّل الحافز والقوة الدافعة التي تعبئ قوى المجتمع لتحقيق أهدافه وغاياته ، وهو كذلك العنصر الأساسي في تماسك المجتمع ، فالأخلاق من وجهة النظر الإستراتيجية هي الإطار الذي تتحقّق فيه النهضة الحضارية المنشودة وغايتها[٢] ، على هدي من:

- مبدأ التوحيد .
- مبدأ الجماعة .
- مبدأ الكرامة الإنسانية .
- مبدأ الفطرة السليمة .
- إرادة الإصلاح والنأي عن الإفساد في الأرض .
- مبدأ العالمية والإنسانية .
- مبدأ القدوة الحسنة .
- مبدأ الصدق والإخلاص .

---

(١) استراتيجية قطاع التنمية الاجتماعية – استراتيجية الأخلاق والرقي الاجتماعي – ص ١٧.

(٢) استراتيجية قطاع التنمية الاجتماعية – استراتيجية الأخلاق والرقي الاجتماعي.

- وظيفة الأخلاق .

وفي إطار تفعيل طاقة المجتمع الشبابية ، أكدت الإستراتيجية على مبدأ حيدة العمل الشبابى ، بإقامته على أسس أصيلة مفضية لتطويره ونجاحه ، وذلك بإلتزام:

- مبدأ إنسانية العمل الشبابي .
- مبدأ قوميته (العمل الشبابي) .
- مبدأ الشورى الديمقراطي .
- مبدأ العلمية .
- مبدأ احترام العمل .
- مبدأ التربية للحياة .
- مبدأ الشمول والتكامل والتوازن .
- مبدأ الحوار[١] .

وقد لُوحظ أنّ القوانين أو أصولها المتمثلة في الخطط الإستراتيجية لا توفّر دائما الوسائل الكافية وضمان التنفيذ الفعال للمبادئ والمعايير المتعلقة بحرية الدين والمعتقد ، إذ المسألة تتعلق بالتكوين الخاص بالإنسان ، وبالمناخ الذي يعيش فيه ، ويتم هذا على مستويات ثلاثة هي: الدولة ، والعائلة ، والإعلام . كما أن المسألة المتعلقة بالتسامح لا يمكن أن تحلّ في نطاق النصوص القانونية ، بل تحل على أرض الواقع ، لأنّ الواقع هو الذي يحدد مسار النصوص القانونية وتطورها في المستقبل ، إلى جانب الدّفع نحو أن تكون مادة حقوق الإنسان مادة خاصة تدرّس في المدارس من الابتدائية حتى أعلى مستويات الدراسة[٢] .

---

(١) استراتيجية الشباب: ص ٣٨.

(٢) انظر: وليم سليمان قلادة: كتاب التسامح الديني والتفاهم بين المعتقدات: ص ١٦.

وبناء على ما تقدم يمكن القول أن الدين مثل عاملا مهمًّا في صياغة المجتمعات وتنظيم علاقتها الداخلية وروابطها الخارجية ، وعلى هديه يحدّد شكل المجتمع وأنماط السلوك الفردي والمجتمعي ، لذلك فإن مرتكزات الحوار بين الأديان تقوم على مجموعة حقائق أهمها:

ـ أنّ الدّين ارتبط ومنذ فجر التاريخ بمحاولات الإنسان للتوصّل إلى (المعنى) سواء داخل نفسه أو في العالم المحيط به .

ـ أنّ الدّين أحد أهم الوسائل التي ساعدت الإنسان على حل مشكلاته في كافة تفصيلاتها المتنوعة .

ـ ساعد الدّين الجنس البشرى على إنارة الطريق وإزالة الحجب والغموض الذي ساد الكثير من ظواهر الكون .

ـ أنّ الأديان باختلاف أنماطها وأشكالها وأنساقها وحّدت الجماعات الإنسانية وربطت بينها في أقوى رابطة عرفها الإنسان .

ـ أنّ علاقة الإنسان بأخيه الإنسان لا يمكن فهمها إلاّ في ضوء معرفة طبيعة علاقته بالدّين .

ـ عن طريق الدّين يستطيع الإنسان أن يكيِّف نفسه مع البيئة الكلية التي يعيش فيها ، بل وتحسينها من أجل ضمان مستقبل أفضل للبشرية وإيجاد حلول للأزمات التي تحيط بالبشر من كل جانب[١] .

وفي ضوء تلك الموجّهات ، واعتمادا على التحليل الاجتماعي والنفسي يمكن أن نقيم نمطا اجتماعيا يستوعب الآخر ، ويضمن تحديد العلاقات الإسلامية النصرانية ، في إطار دولة مرجعيتها الإسلام دين الأغلبية ، من دون

---

(١) حسسن إسماعيل عبيد: سوسيولوجيا الأديان ؛ مدخل الحوار بين الأديان. حوار الأديان، الخرطوم، أكتوبر ١٩٩٤، ص ٦.

إكراه للأقلية ، كما أنه في الحوار لكلّ واحد أن يعبّر عن شعوره وتصوّره وموقفه من الآخر . المهم أن يبقى الاحترام المتبادل أساس العلاقة ، فضلا عن أنه قناعة عامة نحو صياغة اجتماع إنساني إيجابي[١] .

تعريف التنصير وبيان حدوده:

جاء الموقف من أصحاب الأديان الأخرى واضحا وصريحا في القرآن الكريم وكذلك السيرة النبوية ، الملهم الأساس لدولة الخلافة الرّاشدة ، والمرجعية الصّلبة للتجارب الإسلامية اللاّحقة . نلحظ ذلك في التوجيهات النبوية الصّارمة لقوّاد الجيش ورجال الدّولة ، وكذلك في تشديد الخلفاء على العمّال وتحذيرهم من نقض عهد الله ورسوله ﷺ .

فلم يقرّ الإسلام بحقوق الذمّيين ظاهرا ويمنعهم عمليا ، وإنّما شملهم بجو من المشاركة الاجتماعية والمودة والمجاملة والخلطة ، فجعل طعامهم حلال للمسلمين ، وذلك ليتم التزاور والتضيف والمؤاكلة والمشاربة وليظل المجتمع كله في ظل المودة والسماحة . وكذلك يجعل العفيفات من نسائهم طيبات للمسلمين ، وقَرَن ذكرهن بذكر الحرائر العفيفات من المسلمات ، وهى سماحة لم يشعر بها إلا أتباع الإسلام من بين سائر أتباع الديانات . والإسلام في كل هذا لم يند فيه لفظة أو معنى يكن فيه البغض والكره لأحد ، أو يبيّت له مشاعر الحقد أو لأيّة فئة من الناس أيًّا كان لونها أو عرقها أو لسانها ، بل حمل الإسلام الخير للناس كافة ، وسعى ولا يزال لذبهم عن النار ودفعهم عن مكاره الدنيا ثم عن عذاب الآخرة وخزيها .

كما توسّع القرآن في حركة حوار فكري عقائدي مع أصحاب المعتقدات الأخرى ، وبخاصّة أهل الكتاب ، فناقشهم أصول عقائدهم وبيّن خطأها وزيفها

---

(١) Diana – Leik: What do we mean by: Dialogue"? A survey of types of interreligious dialogue today- Current Dialogue: December ١٩٨٦ – P.٥.

ودعاهم بدعوة الحق ، وشجّعهم على الأوبة إلى الله فيكون لهم الأجر مرتين ، كما أمر الرّسول ﷺ من بعده بالإحسان إليهم وبذل القسط والبر لهم في المخاطبة والمعاملة والموعظة والمجادلة بالتي هي أحسن ، تأليفاً لقلوبهم وتحبيباً لهم في الإسلام وتقريباً لهم من المؤمنين ، بل حتى لّما جاهروا بعداوة الإسلام وحاولوا صدّ دعوة الحق بالقوة اكتفى ﷺ بردّ عداوتهم والدّفاع عن نفسه ، وكان دائماً يستوصي المؤمنين خيراً بالآمنين منهم والمسالمين ، مقبلاً على كل راغب في الخير يجيب دعوة الحق ، يمد يده للتعاون مع أتباع كل ملة ونحلة من أجل إقامة شِرعة العدل ونشر الأمن وصون الدماء وحفظ الأرواح والذود عن الحرمات والحريات والحقوق[1] .

لم يمنع الإسلام المخالفين من اعتناق عقائدهم وتأدية شعائرهم ، بل التزمت الدولة ضمان أجواء حرية التعبّد كاملة ، ومنع الإكراه أو التضييق إن طالهم . فلم يُلزم الإسلام أحدا بتغيير دينه ، بل لا يَقبل دين مُكره . كما لم تضيّق الدّولة الإسلامية حتى في فترات ضعفها على رعاياها من غير المسلمين ، بل كانت بيت مال المسلمين مفتوحة لهم ولغيرهم من اليهود والنصارى ممّن اضطرّته الحاجة .

إنّ مهمّة الدّولة الإسلامية رعاية مواطنيها وتوفير حاجياتهم ، ومنعهم من التعدّي والتظالم ، حتى ينعم كلّ مواطن بالحياة الكريمة حرّا في معتقده وكسبه وتحرّكه . فتنظيم حركة العمل والإنتاج ، بتوزيع الأدوار والتوظيف وتحقيق العدل ، وكذلك منع الإفساد والتخريب وكل ما يضر بأمن الدولة والمجتمع . كما أن من مهام الدولة المسلمة حماية الدين والدعوة إلى الله وحده ، والوقوف في وجه دعوة الباطل ونشر مبادئ الكفر والإلحاد ، أو تسريب مفاهيم خاطئة وتصورات لا تستقيم مع مبادئ الوحي وتوجيهاته: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى

---

(١) حسن خالد: موقف الإسلام من الوثنية واليهودية والنصرانية. معهد الإنماء العربي، بيروت، طبعة ١/ ١٩٨٦، ص ٧٦٤.

ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج:٤١] ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف:٩] .

إنّ الإشكال الفقهي يكمن في كيفية رسم العلاقة بين هذه الآيات القرآنية الملزِمة والواقع السّوداني ، وقد كنّا أشرنا سابقا إلى التوتّر الذي ساد الحوار الدّيني السوداني ، والمقصود به حقيقة:

ـ ممارسة الضغط وسياسة الإحراج ضد الدولة .

ـ إثارة قانون التبشير .

ـ إحراج الدّولة للتنصّل علنا من جميع القوانين التي تحدّ من النشاط الكنسي .

ـ تأليب الوفود الكنسية الأجنبية ضدّ الدّولة بقصد التقليل من أهمية المؤتمرات وقراراتها ، وتقديمها لا على أساس أنّها تجربة مستقلّة تحتاج التشجيع والعون ، وإنّما باعتبارها جزء من سياسة الدّولة الرّامية إلى محاصرة النصارى والتنصير .

إلاّ أن ذلك لا يعفي الدولة من تحمّل مسؤولياتها في حماية المجتمع ووجوب إنفاذ مشروعها الحضاري ، كما أنّ سياسة تلميع الصورة ومحاولة إرضاء الأطراف الخارجية لن يشفع للسودان المسلم . فواجب الدّولة الإسلامية حماية رعاياها المسلمين أن يُفتنوا في دينهم ، وضمان حقّ غير المسلمين في العيش وفق تعاليم العقيدة التي يدينون بها في الإطار الذي يكفله تشريع الدّولة ، من دون تفلّت أو إساءة استخدام القانون . منعا للفتنة الاجتماعية والاحتراب الداخلي .

فَتَحْتَ لافتة مجلس المطارنة الكاثوليك وجمعية الكتاب المقدس وهيئات الإغاثة والتبشير تمّ استدعاء كم هائل من العاملين باسم مبشرين ومترجمين

ومختصين في اللاّهوت ، ممّا يثير عدة تساؤلات:

ـ هل السودان في حاجة لهذا الكم الهائل من المنصرين؟

ـ أين رجال الدّين النصارى السودانيين؟

ـ لماذا لم تكوّن مدارس اللاّهوت الكنسية السودانية إطارات دينية وطنية؟

ـ لماذا الإصرار على الارتباط بالمؤسّسات الأجنبية وخاصة الكاثوليكية؟

ـ هل هذا الكم الهائل من الأجانب التابع للمؤسسات التبشيرية يشتغل فعلاً بالعمل التبشيري أم له مهام أخرى غير معلنة؟

ـ لماذا لا تتّجه المؤسسات التبشيرية نحو بعث مشاريع كبرى ، تعود بالنفع على كل المواطنين دون تمييز بين الأقاليم أو على أساس الدّين؟ .

ـ لماذا لم تندّد المؤسسات الكنسية السودانية بتقاربر «كاسبر بيرو» مبعوث الأمم المتحدة بالسودان ، وبما صرّحت به «البارونة كوكس» من اتهامات للسودان؟ ، ومن يقف وراء تحركاتها المكوكية في أنحاء العالم؟ .

ـ لماذا تستقي بعض المؤسّسات الكنسية الأوروبية معلوماتها من المعارضة السّودانية ، وتناصب الدّولة العداء؟ .

ـ لماذا لم تندد المؤسسات الكنسية السودانية بمبادارات منظمة «كريستيان سولدرتي انترناشونال» في سعيها تجميع المعارضة السودانية بالخارج ، والتآمر على أمن البلاد ، وقد انحرفت بذلك عن رسالتها الأصلية في التبشير؟ .

ـ هل أنّ هذه المؤسسات الكنسية هي مؤسسات دينية ذات رسالة روحية أم هي مؤسسات لها مهمّة أخرى غير المعلنة؟ .

في نظرنا ما يجب أن يطرح بكلّ جرأة عند تحاور المؤسسات الرسمية ولجان الحوار الديني هو التأكيد على وطنية العمل الدّيني وقطع الارتباط بأي طرف

غير وطني . من أجل تنظيم سير المجتمع بعيداً عن الفوضى والولاء للأجنبي . وأن لا تبقى توصيات وقرارات المؤتمرات مشاريع نظرية تتبنّاها الدّولة ولا يُسهم النصارى في تحريكها داخل تجمّعاتهم الدينية ، بل يجب أن تصبح جزء من ثقافة المجتمع البدهية . فالتزام القانون لا يعتبر مصادرة للحريات الدينية ، كما هو حال المسلمين بالغرب:

ـ لا يتمتّعون بحرية بناء المساجد والمؤسسات الدينية .

ـ يضايقون في وسائل الإعلام الخاصة التي أسّسوها .

ـ يستثنون من وسائل الإعلام الوطنية ، ولا يذكرون عامّة بخير .

ـ ضبابية الدستور في ما يخصّ ترشّح مسلم للرئاسة .

ـ منع الطالبات في مرحلة المتوسّط والثانوية من ارتداء اللّباس الإسلامي ، وتعرّض الجامعيات منهن لمختلف أنواع المضايقات والاستفزاز .

ـ المسلم في العديد من بلاد الغرب مواطن متّهم حتى تثبت براءته .

أعتقد أن الحكم على وضعية النصارى بالسودان وحرية تحركهم لا يتمّ إلاّ من خلال مقارنة ذلك بواقع المسلمين في الغرب النصراني ، وأوضح مثال الحالة الفرنسية التي تتعرّض فيها حركة التديّن الإسلامي السلمي إلى مضايقات وتحرّشات تحت ستار حماية العلمانية وقيم الدّولة المدنية [1] .

تكوين جبهة المتدينين:

يعدّ هذا المطلب من توصيات مؤتمر حوار الأديان الذي عقد بالخرطوم سنة ١٩٩٤ . ولكن بمراجعة مفردات التوصية تتبادر إلى الذهن أسئلة كثيرة تتعمّق بمراجعة مصادر الفكر العقدي النصراني ، وتاريخ الكنيسة . ومن تلك الاشكالات:

---

(١) انظر : التقرير الخاص بذلك ملحق رقم ١، قسم الفهارس، باب الملاحق.

ـ ما المقصود بالجبهة الدينية؟

ـ ما هي العلمانية؟

ـ ما هي المشاريع المعنية بتكوين الجبهة؟

أرى أنّ الإجابة على تلك الأسئلة مرتبطة بتاريخ العلاقة بين الكنيسة والعلمانية . و « لعلّ من أهم الأسباب وراء ظهور التيار المادي الإلحادي المعاصر وإنتشاره الكنيسة المسيحية وما قامت به من ممارسات . ذلك أن القائمين على أمر الكنيسة من رهبان وقساوسة حرفوا النصرانية التي أنزلها الله على عيسى وأدخلوا في دين الله كثيراً من البدع والخزعبلات والخرافات ، وكوّنوا من خلال «مجامعهم» عقائد باطلة في أوروبا باسم النصرانية»[1] وقد أدى هذا عبر تراكماته إلى انحراف في الفطرة وتحريف في أصول الرّسالة إضافة إلى ما مارسته الكنيسة من مختلف ألوان القهرالفكري بمنع حرية قراءة النص الديني ، ومصادرة حقّ التفكّر في حائق الكون وقوانينه . وعلى المستوى المادي بما فرضته من ضرائب وأتاوات ، فكانت عوناً للإقطاعيين والمستغلين ، وسيفا على رؤوس الفقراء والمظلمين الذين تضطهدهم وتعدهم الجنّة جزاء صبرهم .

وممّا زاد الوضع تعقيدا شيوع بعض الأخبار عن انحرافات في سلوك بعض الرهبان والرّاهبات . بداية من العلاقات الجنسية المحرّمة بينهم إلى ما عُرِف حديثا بقضايا الشذوذ الجنسي «Pédophilie»[2] ، الذي تورّط فيه بعض الرهبان مع أطفال قُصَّر . وبذلك انقلبت أوروبا حربا على الدين ورجاله ، في حركة تصحيحية من داخل الإطار الدّيني ومن خارجه ، وخاصّة المفكرين الذين

---

(١) أحمد محمد أحمد جلي: الإلحاد المعاصر: نشأته، أسبابه، ونقد أسسه – مطابع جامعة الملك سعود – ١٩٩٣ – ص٨..

(٢) عرّف القاموس الموسوعي الفرنسي :
DICTIONNAIRE ENCYCLOPEDIQUE ٢٠٠٠ ، مصطلح «Pédophilie» بأنّه : انجذاب جنسي من طرف البالغين نحو الأطفال.LAROUSSE ١٩٩٩ – P ١١٧١.

تنكّروا لكلّ القيم والمثل الدينية وحقائق الغيب لصالح العقل والعلم التجريبي . فكان القرن التّاسع عشر قمّة المفارقة بظهور الاتّجاهات الوضعية والحركات الفلسفية والمذاهب الإلحادية ، كما وقع بعض الناس في الإلحاد مكابرة بغرض مخالفة كل حقيقة تتّفق مع الدين ، ثم ظهرت صور من الإلحاد المذهبي المنظّم بإجبار الناس وحملهم على الكفر ، عبر مؤسّسات الدّولة التي تبنّت الخيار الشيوعي . فالجبهة الدينية هي التقاء أطراف متجانسة من حيث الانتماء أو متوحّدة في الغايات ، بتواضعها على جملة مبادئ تدافع عنها . وبرغم نشأة العلمانية ضمن السياق الحضاري النصراني ، فإنّ ذلك لا يمنع الالتفاف حول جملة قضايا تمثّل قاسما مشتركا بين أهل الأديان ، لتخفيف غلواء العلمانية وتطرّف الإلحاد .

قدّم حسن عبد الله الترابي تصوراً خاصاً لجبهة أهل الكتاب ، يستند إلى القراءة التاريخية لما يسمّيه بالجذع الإبراهيمي المشترك . فقد «تعاقب الرسل في موكب تاريخي يصدق بعضهم بعضاً ملة واحدة للعالمين أسماها إبراهيم عليه السلام أمة المسلمين عندما دعا ربّه وإسماعيل ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٨] واستمر هذا الموكب الرسالي حتى تكامل الأمر في الرسالة المحمدية بالمبادئ الخالدة ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة:٢٥٦] . بذلك أرست مبدأ حرية الاعتقاد ثم جاءت بمبدأ ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت:٤٦] ، وجعلت الرسالة المحمدية الإيمان بالرسل السابقين فرضاً على أتباعها ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٦] ، بل دعت إلى البرّ

والإحسان بمن لم يقاتل المسلمين ليردهم عن دينهم ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة:٨] ، بل دعا القرآن أهل الأديان الكتابية إلى اتحاد ديني ينهض على كلمة التوحيد ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:٦٤] .

وهذه هي دعوتنا اليوم ، أن نقيم جبهة أهل الكتاب . والكتاب عندما يطلق في القرآن يقصد به كل كتاب جاء من عند الله . وميثاق هذه الجبهة ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا ﴾ . ونفهم من ذلك ألا نقبل أي فكر وضعي يناقض الهدي الإلهي وألا نقبل الدعوات اللادينية التي ترمي إلى هدم المثل والأخلاق الدينية . ولئن كان هذا أمراً مطلوباً منذ قرون مضت فإنه مطلوب اليوم أكثر مما كان مطلوباً في أي يوم من الأيام ، ذلك أن الفساد قد ظهر في البر والبحر واستعلى أهل الباطل بباطلهم واستخزى أهل الحق بحقهم ، ولا بد من لقاء بين الأديان ، يرد الهجمة على الإيمان وعلى الأخلاق الفاضلة والمثل النبيلة التي جاءت بها الأديان جميعاً . إن قيام جبهة المؤمنين هو مطلوب الساعة وينبغي ألا تحول دونه المخاوف والتوجسات التاريخية»[1] .

لكن السؤال الذي يفرض نفسه في الإطار الفكري لجبهة المتدينين ، هو كيف نحقّق قيام جبهة متدينين مع شركاء يتباينون في ما بينهم من حيث أصول الاعتقاد والمرجعيات الدينية ، بل ويختلفون في تحديد مفهوم العلمانية؛ هل هي

(١) الحوار بين الأديان: التحديات والأفاق: ورقة قدمت ضمن فعاليات مؤتمر حوار الأديان بالسودان – أكتوبر ١٩٩٤ – ص٤.

فصل الدين عن الدولة أم فصل الدين عن السياسة؟[١] ، كما يختلفون في تقييم كثير من القضايا الحادثة والعالقة ، كالتي لها صلة بالإسلام والمسلمين في أماكن النزاع وخاصّة الأقلّيات المسلمة بأوروبا .

فقد وقعت الكنائس السودانية (١٩ كنيسة) نداء السلام في ١٠ مارس ١٩٩٧ ، أكدت فيه دورها الروحي في صنع السلام إنطلاقا من مبادرة مجلس الكنائس السوداني ، وأكدت استمرار مشاركتها في جمع الشمل وتوحيد الصفوف نحو السلام . أما عن الكنائس الموقعة على الميثاق فهي: الأسقفية الكاثوليكية ، المسيحية السودانية ، القبطية ، الإنجيلية ، كنيسة المسيح السودانية ، السودان الداخلية ، أفريقيا ، اليونانية ، الأرمنية ، الأثيوبية ، الأريترية ، الروم الكاثوليك ، مجلس الكنائس السوداني ، الإرسالية الجديدة ، الثالوث الأقدس ، اللّوثرية .

وأثار غياب المسيحيين الأورثوذكس كثيرا من علامات الاستفهام . ويشير مراقبون أن موقف الكنائس الأرثوذكسية غير مبرّر في قضية وطنية يتفق حولها الجميع . وتعتبر الكنائس الأرذوكسية خاضعة لنفوذ المبشرين الأجانب ، حيث أن هناك ما يقارب ٢٥٠ مبشرا أجنبيا يتولون مناصب فيها . ويتساءل المراقبون ماذا يعني هذا الموقف بينما يتعرض السودان لاعتداء يهدّد حدوده واستقراره[٢] .

أمّا من الناحية التاريخية فإنّ العلمانية لا تمثّل حرجا أو إشكالا حقيقيا للنصارى عامّة؟[٣] . وبرغم ذلك فإنّ الذي يجمع أكثر ممّا يفرّق ، ولا ينفي

---

(١)-Two faiths meet to discuss secularism in Britain Today: Focus: on Christian – Muslim Retations. Published by thelslamic Foundation-Leicester, U.K. – ٨٩/١ – P:٥

- Witness to God In a secular Europe: Focus: ٤ /٨٤ – P.٣.

(٢) صحيفة المستقلة، لندن، س ٥، ع ١٤٩، الاثنين ٨ ذو القعدة ١٤١٧ / ١٧ مارس ١٩٩٧، ٥.

(٣) رأي فيلوثاوس فرج: الذي يرى أن هذا الهدف أو الاقتراح (تكوين جبهة دينية) هو من إملاء الجانب الإسلامي، وأنه ليس لديه أي مشكلة مع العلمانية كفكرة (ولربما تداعياتها): مقابلة شخصية مع الباحث: الخرطوم: ٦ ديسمبر ١٩٩٥.

إمكانية قيام تحالف وتنسيق ثنائي بقصد إعلاء قيم الخير والصدق والعدل[١] ، في مواجهة حركة الإباحية والتدمير الأخلاقي والقيمي المنظمة ، في عالم اختلّت موازينه ومعاييره . ويعتبر مؤتمر السكّان الذي عقد بالقاهرة سنة ١٩٩٤ خير مثال على ذلك . فإنّ التحالفات التي عقدتها الأطراف العلمانية الإلحادية لتمرير المشاريع والخطط المشبوهة ، قابلتها تحالفات معتبرة بين بعض الوفود الإسلامية وممثلي الفاتيكان لعرقلة المصادقة على جملة المحاور التي تستهدف:

ـ فتح المجال واسعاً أمام الشباب لكي يستفرغوا طاقاتهم الجنسية في غير الطريق الذي رسمه الإسلام ، وبذلك يتحقّق هدف السعي إلى عدم تكوين أسرة ، الأمر الذي يؤدي إلى انخفاض المواليد .

ـ دعم وتذليل كافة العقبات أمام الوسائل والأساليب التي تعين على منع حدوث الحمل .

ـ الفتيات اللاتي يحملن سفاحاً سوف يهيء لهن القانون الخاص بإباحة الإجهاض الفرصة الكاملة في التخلص من حملهن .

ـ إباحة ممارسة الشذوذ الجنسي على أي نطاق سوف يؤدي بشكل ما إلى الإقلال من المواليد[٢] .

إلى جانب ذلك فإنّه بالإمكان طرح محاور أخرى للتنسيق والتعاون المشترك بين أهل الأديان ، وخاصة بين المسلمين والنصارى . وفي ذلك عدة فوائد:

ـ تقريب الشُقّة بيننا والنصارى ، وإدامة الصلة بهم ، وفي ذلك أمل لكسبهم ومدّ جسور التواصل معهم .

ـ تحييدهم حتى لا يتم استغلالهم في مشاريع ضد الإسلام والمسلمين .

---

(١) وقد طرح البابا شنودا بالقاهرة – على ضوء انعقاد مؤتمر السكان سنة ١٩٩٤ – فكرة البحث المشترك بين الكنيسة والأزهر لتأكيد عقائد: وجود الله. الوحدانية، البعث، الحساب...

(٢) محمد حبيب: المؤتمر الدولي للسكان والتنمية: غياب المنهجية العلمية وتجاهل أسباب التخلف. مجلة الدعوة، العدد ٢٨، ٧ سبتمبر ١٩٩٤، ص ١١.

- إستغلال علاقاتهم ومراكز نفوذهم الرّوحي في رفع المعاناة عن المسلمين في الغرب ، وكذلك في خدمة القضايا الوطنية بفكّ الحصار الذي يراد فرضه على السودان .

- ضمان مشاركتهم في إنفاذ المشاريع المتّفق حولها في المؤتمرات الدينية .

- إيجاد أكثر من قطب يدافع عن القيم والأخلاق الفاضلة .

*****

المبحث الثاني
الأهداف النصرانية من الحوار

تمهيد:

يُستنتج من خلال ورقات حوار الأديان المنعقدة بالسودان غلبة النّزعة المطلبية على الهيئات والشخصيات النصرانية ، إلى جانب عمومية الخطاب وسطحيته وترديد نفس المصطلحات التي لا تساعد على رسم خطّة عمل متوازنة . وفي تصوّرنا أنّ مرجع ذلك عدم قدرة النصارى على استيعاب فرضية أن يكونوا مواطنين شركاء ، بدلا من أن يحافظوا على سلبية توظيفهم ضمن إطار عام لسياسات غير وطنية ، فيختزلوا في صفة مُلحق ثانوي يؤدي مهمّة غير واضحة في ظاهرها ولكنها خطيرة في أبعادها الحقيقية .

وفي تقديرنا فإنّ تلك الوضعية في جزء كبير منها فرضت على النصارى من حيث لم ينتبهوا إلى مآلاتها . ممّا أنتج تناقض في المواقف خلال جميع فترات الحكم الوطني السوداني ، وذلك لانقسامهم على أنفسهم بين مؤيّد ومعارض للحوار ، إلى جانب عدم قدرتهم على تحديد أولويّاتهم في إطار مشروع الحوار الوطني والدّيني . لذلك تراوحت مواقفهم بين التحفّظ والصمت أو التنديد بالإقصاء وحمل السلاح أو طرق باب المشاركة حينا . وغالبا أنّ الذين شغلوا في مؤسّسات الدّولة العليا هم ممّن ليس له طموحات سياسية مثل الحركة الشعبية لتحرير السودان التي تزعّمها المتمرّد العقيد جون قرنق لقرابة ربع قرن من الزمن ، أي منذ تأسيسها إلى حين تصفيته من طرف شركائه الجنوبيين والأفارقة ، نتيجة لتغوّله وهيمنته وجعله من شركائه في الحركة مجرّد ظِلال لشخصيته المحورية .

ونتيجة لحالة الغموض التي اكتنفت طبيعة الحراك الوطني السوداني ، إلى جانب تقاطع السياسي والديني فيه ، لم يعد من اليسير التفريق بين من هو الرمز

السياسي النصراني ومن هو الرمز الديني . فقد ألقت الكنيسة بثقلها في أتون الجدل السياسي المحموم ، ولم تعد تعبّر عن إنشغالاتها وطموحاتها إلاّ من خلالها وعبر مصطلحاتها ، بدلا من المحافظة على هيبتها ورمزيتها الدينية الروحية . ممّا أدّى إلى تشوّه شرعية المطالب وتقلّص الرمزية الدينية لصالح التنافس السياسي الحزبي الذي غلب عليه الطابع الطائفي ونزعة التشكي ، فأفقد أهداف الكنيسة ومقاصدها من الحوار حرارة المصداقية والشرعية المطلبية .

وتجدر الملاحظة كذلك إلى تكتّم المؤسّسات الدينية النصرانية على المعلومة التي تفيد في البحث ، فلم تظهر تعاونا جادا إذا استثنينا المجاملات الودية . وإنّني لا أقصد في هذا المجال النصارى المندمجين في مختلف مؤسّسات الدّولة ، وإنّما الذين لهم صلة مباشرة بالحوار الديني في المؤسّسات والمنتديات الكنسية . ممّا أثّر سلبا على طبيعة عملنا الأكاديمي ، وجعله محكوما بالمراجعة المتواصلة لأدبيات الكنيسة وبعض وثائقها ، أو ما يكتبه بعض رجال الدّين في الصّحف والدوريات . فكان عملنا مرتبطا أكثرا بجهدنا الفردي في تركيبة المعلومة الواحدة من عدّة معطيات لنصل في آخر المطاف إلى نتيجة جزئية متعلّقة بقضية جزئية ، ثم نؤلّف بين الجزئي لتحديد ملامح الكلي ، ونقارن ذلك بما له علاقة من أطراف القضايا الأخرى . إنّه بالفعل عمل شاق ومضني ، كان من الممكن أن يكون سهلا ومختزلا لولا تعاطت الجهات الدينية النصرانية مع تساؤلاتنا بكلّ تجرّد وبمعزل عن الخلفية الأمنية التي تتوجّس خيفة من كلّ سؤال لربّما يؤدّي عرضا لاكتشاف حقائق لم يكن في الحسبان التعرّف عليها .

وإذا حاولنا تحديد مطالب النصارى عامّة وما يقصدونه من الحوار في بعده الدّيني ، فإنّه يمكن توصيف ذلك في التالي:

تقنين التبشير:

يعتقد الأب «ر - كسبار» أن مظاهر التجديد في العالم الإسلامي محتشمة ، وأن الحركات الإصلاحية بداية من الحركة الوهابية وحركة الأفغاني وعبده ، إلى

مجيء الثورة الإيرانية ، كلها سلفيه فاشلة ، أي محافظة وجامدة ، لذلك يجب التجديد في الإسلام ذاته ، ولا يكون تجديداً إلا بالأخذ عن أوروبا ، والتخلي عن كل ما يعرقل الاقتصاد كالصلاة والصوم . . .ولتأخذ المرأة مكانتها في المجتمع ، وليكن رجال الإصلاح كبعض العرب الذين فهموا المسيحية أكثر من المسيحيين أنفسهم وتطبّعوا بتعاليمها ممّا يؤهّل إلى التجديد[١] .

وتحت شعار الإصلاح والتمدّن تحالفت الحركات التبشيرية لخدمة المشروع الاستعماري ، وذلك لأنّهم «شعروا بأن الإسلام لا يهزم في ميدان الحرب وأن المسلمين لا تصح دعوتهم إلى الإلحاد السافر ، فإن هذا يلهب غيرتهم الدينية ، لذلك اختاروا للوصول إلى هدفهم أسلوب لا يزعج المسلمين ولا يثيرهم ، فإذا انقطعت الصلة بين الكلمات والمعنى ، وأصبحت الكلمات لا تدل على معنى ظاهر ومفهوم معين ، تسرّب الشك والاختلاف إليها»[٢] .

تساعد دراسة التبشير والاستشراق على فهم العديد من القضايا التاريخية وتسليط الضوء على أخرى . فحركات التبشير من الحركات التي يجب أن يتوقف عندها الباحث والمؤرخ على الخصوص ، لا لتفسير الأحداث وفهمها بالتوقّف عند الظّاهر ، وإنّما بمعرفة الخلفية الدينية التي تغذي تطلّعات الكنيسة بإفريقيا حديثا ، خاصة وأنّ مهمّة التبشير الحديث ، كما يذكر الإنجيل ، تجد مبرّراتها في أمر المسيح بأن: «اذهبوا إلى العالم أجمع ، وبشروا الخليقة كلها بالإنجيل من آمن وتعمد خلص ومن لم يؤمن فسوف يدان»[٣] . ومن عدم الصواب أن يتجاهل رجال الدين صلتهم بالاستعمار ، وأقصى ما يُخصب أذهانهم هو تعليل تواجدهم بإفريقيا وآسيا بتأدية الواجب لخدمة الإنسانية .

---

(١) رجل دين ومبشر فرنسي أشرف على لقاء حول: التيارات الفكرية الإسلامية. نظمته الجالية النصرانية بمدينة المهدية، تونس، ٢٠ يونيو ١٩٨٠.

(٢) أنور الجندي: الإسلام والدعوات الهدامة، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٤، ص ٨.

(٣) مرقس: الإصحاح ١٦/١٦. وجاء في إنجيل متى «فإذهبوا إذا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس» الإصحاح ١٩/٢٨.

وكما سبق الحديث عن الإرساليات الكنسية التي تزاحمت على السودان إبّان الحقبة الإستعمارية ، وكيف تقاسمت الأدوار بموجب قانون المناطق المقفولة ، فإنّنا نجد أنّ رجال هذه الإرساليات هم من العلماء المتخصصين في مجالات علمية دقيقة ، لا تحتاجها الكنيسة على وجه الحقيقة في عملها الديني ، وإنّما هي من مهام الحملات العسكرية الاستباقية ، التي تكون بغاية التعرّف على الأرض الجديدة واستكشاف خباياها ومعرفة تفاصيلها . لذلك حرصت المؤسّسات التبشيرية تحت غطاء الغوث الإنساني على تنفيذ جملة مهام منها:

ـ معرفة خصائص المجتمع السوداني ، من حيث البنية الاجتماعية والتركيبة النفسية والدينية ، وأثر التنوّع العرقي في تماسكه .

ـ معرفة العقيدة الإسلامية ، ومدى أثرها في التربية والسلوك ، وقدرتها على توجيه الحياة الفردية والاجتماعية .

ـ بذر الأخلاق والقِيم الأوروبية ، لتغيير أفكار الناس وسلوكياتهم .

ـ إضعاف روح الولاء الديني ، وخلخلة الهوية الذاتية لتيسير نفاذ الاستعمار.

ـ التركيز على المناطق المغمورة والنائية التي لم يستقر بها الناس ، ولم تكن لهم بها دراية ، وتهيئتها لأن تكون أرضا جديدة للتبشير وتكوين مجتمعي جديد وفق المعايير التبشيرية . وهو ما نجحت البعثات الكنسية في بلوغه بأقدار متفاوتة .

ولما قُسِّمت إفريقيا بين القوى الاستعمارية الأوروبية كان المبشرون قد صاغوا أرضية تفاعل الحضارة الأوروبية بالحضارة الإفريقية ، فتمّ مسح التراث الإفريقي وتقعيد أهمّ اللّغات وذلك باختيار لهجة ما وإقرارها كلغة تعامل رسمية ، وتطعيمها بمفردات من اللهجات المجاورة . وتتم العملية بتخصيص مصلحة للكتابة وأخرى للانتقاء وثالثة لضبط المصطلحات الفنية مع طبعها بالطابع الأوروبي ، مشكّلة بذلك حواجز حضارية؛ حيث تفصل المدرسة التبشيرية الفرد الإفريقي عن بيئته ، وتُسلِمه لمؤثّرات المدنية الغربية .

يعكس تاريخ الحركة الاستعمارية بإفريقيا خطورة الدّور الذي لعبته الإرساليات المتعدّدة الجنسيات ، حتى أن هؤلاء المبشرين تبوأوا مكانة الاستعمار ، لمتانة الروابط بينهما واتّفاق السياسات المشتركة حدّ التماهي . ممّا كان له الأثر السيّء على البناء الأُسري والمجتمعي الإفريقي ، الذي انتقض نسيجه التقليدي لصالح تولّد بؤر الصّراع ، فتعدّدت وجهات النّظر وتباينت الآراء دون الاستناد إلى مرجعية واضحة ، مؤسِّسة بذلك لنماذج من الأخلاق الغريبة المفتقرة للأبعاد الرّوحية الجوهرية . وعوضا عن أن تحرّر الإفريقي من آسر العبودية وتخلّصه من الأمراض والفقر وشبح الإندثار ، نشرت بين كياناته فتيل الفتنة والاقتتال ، تحت غطاء العِرقية مثل صراع الهوتو والتوتسي تارة ، وطورا تحت مظلّة الاضطهاد الدّيني والتفاوت الجهوي مثل الواقع السوداني الذي لم يعرف الاستقرار منذ إنقلاب توريت سنة ١٩٥٥ ، أضف إلى ذلك حروب الإبادة الجماعية في زائير .

وفي كلّ الحالات يبارك الرّب جهد رجل الكنيسة . فالمبشر رسول ومحسن ، ومرب ، ومحرك للبشرية ، كما أن التنصير الحق عندهم هو التمدن الكامل . وفي هذا السياق تظهر رغبة الاستعاضة لتشمل أوسع مجموعات السكان وفي أرقى أشكالها ، إذ تضع نقطة استقطاب مركزية (التنصير الحق ، التمدن الكامل) لمجرّد معطيات مبهمة تعتمد على السياسة التبشيرية ، وتبدو الصورة خالية من الجدل الذي يجب أن يكون[1] . وقد قبلت القيادة الاستعمارية تقسيم السودان الذي باركته جهود المبشرين ، وبرغم ذلك لم يتمدّن الجنوب ، بل لم يعرف أهل الجنوب طريقهم إلى سنن الفطرة . فأين ذهبت جهود فيالق المنصرين؟ .

ليس في نيتنا محاكمة النصرانية السودانية ، بقدر حرصنا على كشف حقيقة الحركات التبشيرية والمنظمات الكنسية الضخمة التي حطت رحالها بالسودان ،

(١) انظر: البشير العربي: التبشير ومحاولات التمسيح. جريدة بلادي، تونس. العدد ٣٦٧، سنة ٨، بتاريخ:٥ يوليو ١٩٨١ – ص٢٢.

وهي تبحث الآن عن غطاء قانوني رسمي علني لتنشيط عملها بمطلق الحرية . استغلالا لفضاء الحرية وجو التسامح غير المحدود الذي أفاضته الدّولة ، ضمن خطة نشر التسامح وتأصيل التفاهم بين المعتقدات داخل السودان ، خاصة وهى ترى أنها قد ظُلمت تحت طائلة قانون الهيئات التبشيرية لسنة ١٩٦٢ ، والقاضي بتنظيم حركة المبشرين والمساعدة على سودنة الكنيسة ، بمنح المساعدات للقساوسة السودانيين لتأهيلهم لمختلف الوظائف الدينية . وقد أوضح مجلس الوزراء أسباب اتّخاذ تلك الإجراءات الحازمة التي ساندتها جميع أحزاب المعارضة السياسية ، باعتبارها خطوة في سبيل رد السلطة واستشعار الكرامة الوطنية:

ـ أدّى عمل المبشرين داخل السودان وخارجه إلى إشاعة عدم الاستقرار وزعزعة الأمن الداخلي للبلاد عن طريق نشر المعلومات الكاذبة ضد الحكومة ، وتحريض المواطنين على ترك البلاد والانضمام إلى حركة التمرد ، وإثارة الطلاب وحضّهم على الشغب والاعتداء على أساتذتهم ، وكذلك إيوائهم للمتمردين مع منحهم الغذاء والدواء .

ـ تدخّل المبشرين الأجانب في الشؤون الداخلية للبلاد وانغماسهم في السياسة المحلية وتحريضهم الجنوبيين لفصل الجنوب ، وحضّهم على الثورة ضد تغيير العطلة الأسبوعية من الأحد إلى الجمعة ، وحثّ الجنوبيين على مكافحة استيطان الشماليين في الجنوب بالإضافة التي محاولاتهم التأثير على توجهات وميول الناخبين .

ـ انتهاك قوانين البلاد بالمتاجرة غير المشروعة في الأدوية دون الحصول على ترخيص بذلك ، وتدريس المسيحية لأبناء المسلمين دون أخذ موافقة ذويهم[١] .

وبمجيء حركة الإنقاذ الوطني وباتضاح مشروعها الحضاري ، وجدت الأطراف النصرانية نفسها مجبرة على التحاور لتحديد وضعها ضمن الخارطة

(١) حسن مكي: المشروع التنصيري في السودان:ص٩٦.

السياسية والاجتماعية الجديدة ، والتي تختلف في جملة مكوّناتها عن الدولة العلمانية السابقة . وفي إطار سعيها لتأزيم الوضع وتوتيره ، طرحت مسألة إلغاء قانون الهيئات التبشيرية لسنة ١٩٦٢ ، هدفها من ذلك إحراج السّلطة وكسب مساحة جديدة في ظلّ التغيير الحاصل بزوال نظام وصعود آخر . وهو ما حصل فعلا بصدور المرسوم المؤقت القاضي بإلغاء قانون الهيئات التبشيرية سنة ١٩٩٤ ميلادية . وقد اعتبرت الكنيسة ذلك:

ـ انتصارا للشرعية وثمرة لجهد نضالي طويل .

ـ اعتراف من قبل الحكومة بالمظلمة التي سلطت على الكنيسة ومؤسّساتها .

ـ مدخلا هاما لبداية المطالبة بحرية التبشير ، بما في ذلك عودة المبشرين والمؤسسات التبشيرية الأجنبية .

ـ اكتساب نشاط الكنيسة ومؤسساتها الطابع القانوني ، وذلك لمنطوق الفقرة الثانية من البند الثاني من نفس المرسوم «تعتبر الهيئات التبشيرية المسجلة بموجب أحكام القانون المذكور في البند ١ كأنها مسجلة بموجب قانون تسجيل الجمعيات لسنة ١٩٥٧ ميلادية» .

ـ إقرار من طرف الحكومة بتبنّي ميزانية المؤسّسات الكنسية السودانية ، مثلها مثل أي مؤسّسة إسلامية سودانية تتمتّع بخدمات ومرافق الدّولة العامّة .

وبناء على ذلك اعتبرت الكنيسة أنّ الدّولة منحازة في موقفها من الجنوب ، مخالفة بذلك منطلقاتها وغاياتها والمتمثّلة في تحرير الجنوب لا القضاء على النصرانية أو غيرها من صور التدين البدائي[١] . لذلك يرى النصارى أنّ من حقهم التبشير المنظم ، قياسا على حرية المؤسسات الإسلامية من حيث الدعوة والحركة والدّعم ، خاصة وأن هذه المناطق محايدة دينيا ، في علاقتها بالمسلمين والنصارى ، وأن حصول غير ذلك لا يمكن تفسيره إلا بحرص الدولة على محاصرة الكنيسة وتصفيتها . ممّا يتعارض مع المبادئ المتّفق عليها ويصادم مواثيق

(١) فيلوثاوس فرج: مقابلة شخصية مع الباحث: الخرطوم: ٦ ديسمبر ١٩٩٥.

حقوق الإنسان في حرية الاعتقاد اعتناقا وتبليغا . ويقوم تصوّر الكنيسة لقضية تقنين التبشير على:

ـ حقّهم في ضمانات قانونية تكفل لهم حرية التبشير وتحميهم من الاجتهادات الخاصة عند تنزيل القانون .

ـ التزامهم بالضوابط المتعارف عليها والقائمة على مبدأ الاحترام المتبادل .

ولكن ما هي الضمانات التي يجب على الكنيسة السودانية توفيرها؟ ، حتى لا تنزلق من حيث لا تدري في خدمة السياسات الدولية الرّامية إلى الهيمنة وبسط النفوذ على مناطق الجنوب ، ومحاولة بث الفتنة والاختلاف بين أبناء الوطن الواحد . فهل تتنصل الكنيسة من الالتزامات الروحية المقدسة التي خرج بها مؤتمر «لوزان LAUSANNE» عام ١٩٧٤؟ ، حيث دخل المنصرون في عهد مقدس مع الرب ودخل بعضهم مع بعض في عهد أيضا للصلاة والتخطيط والعمل المشترك لتنصير العالم ، تحت شعار «لنصل إلى الذين لم يتم الوصول إليهم» ثم جاء مؤتمر «كلورادو» عام ١٩٧٨ لتطبيق هذا الشعار وسط المسلمين خاصة[١] .

ويتفق مؤتمر «كلورادو» في تعريفة لمصطلح التبشير مع التصوّرات البروتستانتية ، التي أثرت بشكل ملحوظ على قرارات وتوصيات المؤتمر ، والتي ترى أنّ غاية التبشير هو إيصال الأخبار السارة The Good News إلى الأفراد والجماعات رجالا ونساء ليقبلوا يسوع المسيح ربا ومخلصا ، وأن يعبدوه من خلال عضوية الكنيسة ، وفي حالة عدم إمكان ذلك السعي لتقريب المعنيين من الأفراد والجماعات من الحياة النصرانية ، فلا بدّ من إعاقة حركتهم ومحاصرة نشاطهم بل والسعي لصرفهم عن دياناتهم بشتى الوسائل والأساليب[٢] . ممّا أثار جملة إشكالات خطيرة ، منها:

---

(١) محمد عثمان صالح: النصرانية والتنصير أم المسيحية والتبشير: ص ٤٨.

(٢) نفس المصدر السابق: ص ٤٧.

ـ كيف توفّق الكنيسة السودانية بين الإيفاء بالالتزامات المقدسة التي قطعتها على نفسها وبين احترام القوانين الداخلية للبلاد؟ .

ـ ما هي الضوابط التي يتحدث عنها النصارى ومن يحددها؛ الدولة أم الكنيسة؟ .

ـ هل تتعهّد الكنيسة بالتزام السياسات الوطنية من أجل صالح البلاد؟ .

ـ هل يحترم النصارى أولوية سياسة الدولة أم أنّ الكنيسة خارجة عن أي سلطة وإدارة؟ [1] .

ـ لماذا لم يعمل النصارى السودانيين وخاصة الكاثوليك على الاستقلال الداخلي وفكّ الارتباط بالبعثات والمؤسسات التبشيرية الأجنبية وبالذات الإيطالية؟ .

ـ ما هي الأوساط التي سيعمل فيها المبشرون ومن يحدّدها؟ .

ـ لماذا لم يُعيدوا كتابة اللّغات الجنوبية بالأحرف الوطنية ويوفّروا ترجمة محلية للكتاب المقدس؟ .

ـ لماذا تحرص الكنائس على تعليم الطلاب الجنوبيين اللغة الإنجليزية دون العربية؟ .

البحث عن المشترك:

تعتبر مقاصد الحوار السابقة مبادئ ضرورية لتحقيق قيمة المشترك بين

(١) «حينما جمع وزير التعليم قادة الكنائس وبلغهم عزم الحكومة على توحيد المناهج التعليمية في جنوب البلاد وشمالها، مما يقتضي وضع يد الحكومة على جميع المدارس، امتنع الكاثوليك من التعاون مع الحكومة، متعللين بأن مدارسهم تعتبر ملكاً للفاتيكان وهو وحده المسؤول عن قبول أو رفض العرض السوداني، وهكذا جعلوا الفاتيكان فوق القانون السوداني، وممتلكات الكنيسة فوق السيادة الوطنية، علماً بأن هذه المؤسسات لم تؤسس بطلب من الفاتيكان ولم يكن هناك تمثيل ديبلوماسي أو معاهدة بين السودان والفاتيكان وإنما أقيمت بطلبات عادية وفي بعض الأحيان كانت بمثابة هدية حكومية": حسن مكي: مصدر سابق / ص ٩٧.

المسلمين والنصارى ، كما يعتبر هذا المقصد نهاية ضرورية ونتيجة حتمية لكلّ مؤتمرات الحوار ومناسبات اللّقاء بين أتباع مختلف الأديان بالسّودان ، وخاصّة ملتقيات الشباب التي تؤسّس لمستقبل الوحدة الوطنية على هدي من تعاليم الدّين وقواسم الاجتماع البشري . فهو بحث عن ضمانات العيش المشترك في الإطار المجتمعي الكبير ، بالتواصل والتفاعل الإيجابي ضمن مؤسسات المجتمع المدني المتنوّعة ، فالحوار الذي نعنيه ليس مجرّد اللّقاء في قاعات المؤتمرات وإنما ما يعقُبه من التواصل المستمر والتأثير المتبادل ، تناصحا وتواصي بالحق والخير في جميع مطالب الحياة .

يشدّد النصارى على مبدأ «الحق» ، حق التصرّف المطلق بما يتّفق وميولاتهم وما تمليه عاطفتهم الدينية . ولكن من يحدّد هذا الحق في مجتمع تعدّدي غالبيته مسلمين؟ . إنّ السلوك الأخلاقي في مجتمع التنوّع يقوم على احترام الخصوصية الدينية[١] ، فلا يمكن أن يؤاخذ إنسان تبعا لمعتقده[*] لأنّه أقلية والآخر أغلبية ، إن طبيعة المجتمع السوداني تفرض نمطا من التعامل قائم على القناعة مع احترام الآخر[٢] .

إن المقصود بالتعايش ليس التوحيد القهري للتصوّرات العقدية وأنماط

(١) فيلوثاوس فرج: مقابلة شخصية مع الباحث، الخرطوم ٦ ديسمبر ١٩٩٥.

(*) عندما بدأ النقاش حول الزي الإسلامي في لجنة الأخلاق - مؤتمر الإستراتيجية والتعليم الاتحادي – تقدم الطرف النصراني بوجهة نظره التي ترى أن المرأة تلتزم فقط بالحشمة والوقار ولكنها لا تلتزم بغطاء الرأس. الذي تحدده النصوص في حالات معينة: أي الحزن والصلاة: صمويل: إصحاح ١٥/ ٣٠- رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، إصحاح١١/ ٤-١٦. «أن المرأة المسيحية ملتزمة بالحشمة والوقار في ضوء مسلمات دينها وقواعده المقدسة، وذلك لأن التقوى هي الزينة الحقيقة، ومخافة الله والقلب التقي هو الطريق الحقيقي إلى إرضاء الله"، رسالة بولس الأولى إلى تيمو ثاوس: إصحاح٢/ ٨-١٠. رسالة بطرس الرسول الأول: إصحاح ٣/ ٢-٦: فيلوثاوس فرج: حديث الأحد: المرأة وغطاء الرأس: جريدة السودان الحديث، ٢٣ يناير ١٩٩٤، ص ٤.

(٢) إنجلو بيدا: قانوني وسياسي جنوبي: نائب رئيس المجلس الوطني الانتقالي: مقابلة شخصية مع الباحث، الخرطوم ٢ نوفمبر ١٩٩٥.

التفكير ، بل الاتفاق حول المبادئ الكبرى التي تحقّق إنجاح المشروع الحضاري السوداني ، الذي وإن أُختُلف حول مكوناته ومرجعيته العقدية إلا أنه إطارا جامعا يضمّ النصراني والمسلم في تركيبته وبحسب خصوصية كلّ جماعة دينية ، ملتزمين بما يُحقّق إقامة مجتمع الفضيلة والتعاون وإرادة الخير . ويعرّف فيلوثاوس فرج المشروع الحضاري بقوله: "إنني أفهم هذا المشروع الحضاري ... أفهمه ليس كمشروع إسلامي . . . إنما أفهمه كمشروع من أجل رخاء الوطن ... مشروع يهتم بإعمال الدين كعامل حيوي في البناء الاجتماعي ... وتفجير الطاقات الدينية لبناء السودان الجديد . وعلى هذا تهتم الدولة بإرساء القيم الدينية السمحة في الإسلام وفي المسيحية ، وهنا يكون دور رجل الدين دورا حضاريا ، حيث يهتمّ رجل الدين في خطبة الجامع وفي منبر الكنيسة بإرساء القواعد الدينية والقيم الروحية"[١] .

إنّ الحركة الفكرية الثقافية الشّاملة تسهم في البحث عن المشترك الوطني الذي يثرى الحياة العامة ، كما يُثري الدّين مجالات الأدب والعلم والفلسفة والجمال والفن والمسرح ، وعلم السياسة ومبادئ الاقتصاد والاجتماع ، وكلّ ما له علاقة بتنظيم الحياة وتكوين المؤسسات وتشريع القانون ومرونة تنفيذه . فيتمّ ذلك من خلال تجربة المنتديات والندوات والكتابة ، وكلّ مظاهر الحركة الأدبية ، والبحث في التاريخ المشترك لشعراء وأدباء السودان ، وإعادة الاعتبار للمناضلين الوطنيّين وأنصار العدالة ورموز السياسة ممّن أثّر في تاريخ السودان .

ولا يمنع ذلك من تأكيد جملة مُسلّمات ، وهى أنّك إذا كنت تعيش ضمن أغلبية لا تتفق معك فإن وضعك سوف لن يكون مريحا ، صحيح لابد من توفير الضمانات حتى لا تُغبن الأقلية أو تُظلم ، ولكن لا يمكن تغيير حقائق الحياة ، لأن الذي له الأغلبية هو الذي يحكم ولكن بالمعروف ، ولا تملك عندها الأقلية

---

(١) فيلوثاوس فرج: حديث الأحد: المشروع الحضاري، جريد ة السودان الحديث ٣ يوليو ١٩٩٤، ص٩.

إلاّ أن تدعو لقناعاتها الفكرية حتى تتحوّل إلى الأغلبية ، فتحكم الأغلبية مع مراعاة هموم الأقلّية ، بأن تحفظ لها حقوقها وتضمن لها حد المساواة وتستجيب لتطلّعاتها . ففي الدولة الإسلامية يُمَكَّن أبناء المسيحيين في المدارس من حصص للدين المسيحي ، وأن لا تفرض عليهم المؤسّسة التعليمية فكرها أو تستغلهم لصغر سنهم ، فالدولة قائمة على تنظيم شؤونهم الدينية وتضمن لهم خصوصيتهم ، مع احتفاظ الدولة بحق توجيه وتوحيد المناهج التي تستجيب للأغلبية من أجل ثقافة وطنية دينية مؤصّلة وأن لا تغير شؤون الدّين لأجل إرضاء الآخرين [١] .

*****

(١) أمين حسن عمر: المستشار الإعلامي لرئيس جمهورية السودان، مقابلة شخصية مع الباحث: الخرطوم١٠ يناير ١٩٩٦.